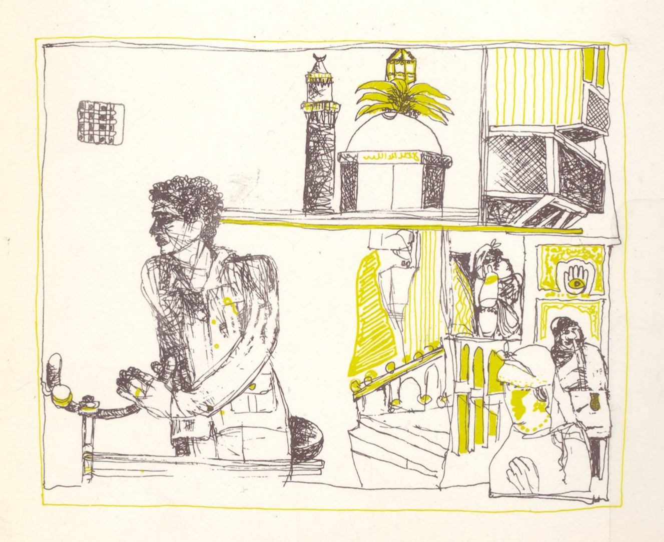
التنوير

عبده جبير

ثلاثية سبيل الشخص




ثلاثيـــــــة
سبيل الشخص

* عبده جبير: ثلاثية سبيل الشخص.
* الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

* الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر.
ص. ب ٦٤٩٩ ــ ١١٣ بيروت ــ لبنان.
الصنوبرة ــ أول نزلة اللبان ــ بناية عساف.

عبده جبير

ثلاثية
سبيل الشخص

الأول

فصل العجلة

كنت قد بدأت البحث عنه حتى تعبت ولكنني قلت إنه ليس من الحسن أن أتقاعس وهكذا بدأت البحث من جديد. كنت في المرة الأولى قد حاولت دون خطة فقلت: لأقمْ بعمل خطة وبالفعل جئت بحقيبة جلدية قديمة وعلّقتها في رقبتي ووضعت فيها الخطاب وودّعت زوجتي وأولادي الصغار وكذلك خالتي العجوز وخرجت وركبت « العجلة » وفكرت قليلاً وأنا أضع قدمي اليسرى على « البدال » وقدمي اليمنى على رصيف الشارع ونظرت للأمام وأنا أمسك باليدين جيداً والحقيبة معلقة على كتفي وفي جيبي علبه سجائري المعدنية والنقود التي أمتلكها وقلت: لأتجه شمالا أولا فقد كانت حواسي تستشعر أن المكان في الشمال وقلت لأجرِّب هذا أولا ثمّ أفكر فيما ستكون عليه النتيجة وهكذا دست على « البدال » بقدمي اليسرى فتحركت « العجلة » وكدت أصطدم بالرجل الذي كان يمشي على حافة الرصيف يعدّ البلاط وهو يهذي لكنني تفاديته ومضيت حتى استقمت على الطريق المؤدّي إلى جهة الشمال وأصبحت على مقربة من « الدرب الأحمر » وأخذت أتنفس بصعوبة حتى أتمكّن من اللفّ والدوران لأتمكن بعد كل شيء من طلوع المرتفع العالي المؤدّي إلى « الدراسة » والمقابر وعلى جانبيه أكوام مرتفعة من التراب قيل إنها كانت السبب في ضعف النظر عند «سكان القاهرة ولكنني قبل أن أتمكن من بلوغ المطلع»

رأيت فتيات ونساء يبعن زهورا لا رائحة لها وسعفا للذاهبين إلى موتاهم وكان اليوم يوم خميس ولكنني لم أر أحدا يقف ويشتري هذه الزهور وقلت إن من الأفضل أن أذهب لأضع بعض الزهور على قبر أمي في « الإمام » وأضع أيضاً بعضاً من هذه الزهور على قبر أبي هناك ولكنني لم أفعل بل إنني وقفت من التعب وأخذت أتنفس بصعوبة ونزلت من فوق « العجلة » وأخذت أسحبها حتى وصلت إلى قمة المطلع ولكنني كنت قد « تبللت » بالعرق فوقفت في مواجهة الريح حتى تجفّ سترتي وشعرت ببداية برد وزكام وقلت إن هذا ليس مشجعاً على المضي قدماً في مهمتي ولكن الهواء جفف سترتي وأنا واقف ممسك بـ « العجلة » أتطلّع إلى المارة والعربات والناس الذاهبين إلى المقابر وقلت: لأتوكلْ على الله وأنزل من الناحية الأخرى من المنحدر وأنحرف يمينا إلى القلعة فقد كانت الخطة تبدأ من هناك وكنت قد سألت رجلا عجوزا فقال لي إنه لا يذكر جيداً ولكنه يظن أنه كان قد سمع بـ « سبيل الشخص » عندما كان صغيراً منذ ستين عاما وكان يسكن القلعة فمضيت في محاذاة الرصيف وكانت القاهرة على يميني والمقابر على شمالي والقلعة في مواجهتي وأنا أبتسم وحاولت أن أغني لأنني تذكرت « الغوري » وغيره من السلاطين وحريمهم وما كانوا يفعلون مع حريمهم الكثيرات جداً وقلت: يا لها من حياة حقيقية فقد كنت طوال عمري أودّ أن أفعل مثل هؤلاء السلاطين ولا أخرج من الحرملك أبداً بل أنام هناك طوال الوقت وأشرب الشيشة والمنزول وأفعل كثيراً وأسمع حكايات « ألف ليلة وليلة » وخصوصاً حكاية الجنية والملكين شهريار وشاه زاد وما فعلاه معها تحت الشجرة وأسرح في بلاد خلق الّله عندما أحب وأينما أكون وآخذ معي أجملهن وأذهب لأصطاد الغزلان في الغابات وأشويها وآكلها في الهواء الطلق وأنام معهن أيضاً في الهواء الطلق والبازي يحوم من حولي واقتربت القلعة مني الآن وأصبحت أنا قريباً منها وكانت « العجلة » تجري جدا وأنا لا أحرك « البدال » ولكنني أمسكت بها جيداً حتى لا أقع لأن الأرض كانت مزلقانا وبعد أن انتهى هذا المزلقان وأنا لا أفكر بل تركت نفسي مع الهواء لم أقدر على أن أطلع المطلع الثاني فتعبت ونزلت وأخذت أجرّها وكانت سترتي قد تبللت مرة أخرى وخفت من البرد

والزكام فوقفت لأرتاح قليلا وتطلعت للمقابر التي كانت مليئة بالناس الذين جاءوا للزيارة والذين يعيشون هناك وكان الجو قد أصبح لطيفاً من حولي لأن العرق كان يجعلني أشعر بالهواء وهو رطب كالزير ولم تكن هناك فائدة من الوقوف والتطلع إلى المقابر فمشيت فترة على قدمي ثمّ إنني ركبت «العجلة» حتى أصبحت القلعة على يميني تماماً وكان أحد العساكر يمشي على السور حاملاً بندقيته على كتفه فضحكت مرة ثانية لأنه هكذا كان يفعل العساكر زمان ولكنهم لم يكن معهم بنادق ولكن كانت معهم نبال وتذكرت الخطاب فوقفت ونزلت من فوق «العجلة» ووضعت يدي في الحقيبة الجلدية فوجدته وكنت قد شعرت بأنه غير موجود وجاءتني رغبة شديدة في أن أجلس وأقرأ العبارة وقلت لأجلس على هذا الحجر وأركن «العجلة» قليلا وأفكر في الأمر فوجدت أنه لا يصح في هذا الزمان ولكنني أمضي وأبحث عن « سبيل الشخص » وعندما أجد « علي » وأعطيه الخطاب فسأعرف كل شيء منه وإذا لم أجده اليوم وغداً حتى يصبح الزمان يوما وعكسه فسأفكر في الأمر فلن أقضي عمري هكذا وقلت: المهم أن أتبع الخطة جيدا وأن أبدأ بحارة « المطر » كما قال لي الرجل العجوز في المقهى عندما سألته وقال إنه غير متأكد ولكنه يذكر شيئاً بهذا الاسم في صغره فأخرجت الورقة الصغيرة التي دوّنت فيها رسوم الخطة ووجدت أنني على حق وكان الوقت قد تأخر وبدأت الشمس تشتد فمضيت وركبت « العجلة » ومشيت حتى أصبحت قريباً من ميدان يجاوره جامع وقلت إن الحارة بجوار الجامع ولكنني لم أتمالك « العجلة » فتركتها تجري لأنني تعبت وقلت ربما هي تعرف الطريق أحسن مني وبالفعل وجدت حارة على يدي اليمنى فقدت « العجلة » إليها ودخلت حتى تمكنت من السيطرة عليها فأوقفتها وكانت هناك امرأة جميلة تلبس فستانا مشجرا وكانت تكشف عن ثدييها الكبيرين فوقفتُ بجوارها فابتعدت فوراً وقلت لأمضي من هنا حالاً وركبت وجريت من أمام المنزل ودخلت زقاقا مسدودا وحمدت الله أنها لم تنادِ على أحد ونظرت لأطمئن تماماً على أن أحداً ليس ورائي وأخرجتُ الخطاب من حقيبتي الجلدية وحاولت أن أقرأ الرقم مرة أخرى لكنه لم يكن واضحا وكان أحدهم يمشي ويتسكع واتجه إليّ وسألني إذا كنت أحتاج إلى مساعدة فقلت له: هل تساعدني على قراءة هذا الرقم فأخذ الخطاب مني وشعرت

بأنه سيمشي به ولكنه أخذ يحاول وقال: إنه لا يستطيع فربما يكون أربعة أو اثنين فقلت: إنني حاولت أيضاً لكنني لم استطع وانتظرتُ أن يقول شيئاً عن « سبيل الشخص » لأنه كان مكتوباً على الخطاب فوق الاسم ولكنه لم يقل شيئاً بل إنه وضع يديه في جيبي بيجامته ومشى وهو يحدث صوتا بالقبقاب وكان يبدو أنه شاذ لأنه كان قد فرق شعره المصفف بالصابون من الوسط وكان يهز خلفيته بطريقة غريبة وكانت الحارة مسدودة من اليمين فمشيت من اليسار ووصلت إلى الميدان وكان هناك عسكري مرور يصفر ويصفر وقلت إنه لا داعي لسؤاله لأنه مشغول فذهبت إلى كشك سجاير على الناصية ولكنني لم أجد أحداً داخل الكشك على الرغم من أنه كان مفتوحا وأنه يمكن سرقته بسهولة فوقفت وناديت « يا صاحب الكشك » ولكنه لم يكن هناك وركبت « العجلة » ومشيت إلى الناحية الأخرى من الميدان وأعجبني منظر البيوت القديمة ذات المشربيات على المرتفعات فوق الجبل وقلت إن هؤلاء الناس محظوظون لأنهم ينظرون للقاهرة من أعلى وعندهم هواء نقي وقلت إن هذه المنحدرات تبدو أثرية وأن لـ« سبيل الشخص » علاقة بهذا الموضوع وشعرت فعلا بفرحة وأنا أطلع إلى هذه الطرقات المنحوتة في الجبل والبيوت مبنية فوقها ولكن الأمر كان صعبا ومع ذلك وجدت شابة جميلة تقف أمام أحد الأبواب لكنها دخلت وتوارت خلفه فلم أستطع أن أرى وجهها وقلت إن هذا فأل غير سارٍ ولكن لا يهم، وكان بعض الخواجات ينزلون من هناك، ومعهم ترجمان يتحدث بالفرنساوية فقلت إنه أفضل رجل يعرف « سبيل الشخص » ولكن الرجل لم ينظر إليّ لأنه كان ماسكا بيد واحدة عجوز ويضحك معها بالفرنساوية وكان الربعة الذي في المقدمة متجهما ولم أستطع بالطبع أن أسأل الترجمان ووقفت أنظر لهم وهم ينزلـون المنحدر ويتـطلعون إلى البيـوت القديـمة ويشيرون بأيديهم إلى أعلى وأخذوا بعض الصور ومضوا فجلست قليلا وقلت لأسأل أول واحد يمر وفعلا جاء رجل أفندي فوقفت وقلت له تسمح فقال أفندم فقلت له هل تستطيع أن تقرأ لي هذا الرقم وأخذت أبحث عن الخطاب وكان الرجل قد تجهّم وجهه جداً وأخيراً وجدت الخطاب في جيب سروالي وأعطيته له بسرعة فنظر الرجل له وضحك وقال هذا لا شيء

وأعطاني الخطاب وتركني فقلت لأعتذرْ له ولكنني جلست وأخرجت علبة سجائري وأشعلت واحدة وأخذت أنفث الدخان والناس تمر عليّ ولا أسأل وفكرت في أن ألجأ إلى سمسار المنطقة الذي لا بدّ أنه جالس على المقهى ولكنني قلت أولا ألفُّ في هذه المنطقة فإذا لم أجد فانني أعود إلى الميدان وأسأل هناك عليه وأخذت أقرأ اللافتات بصعوبة ولم يكن بينها أي اسم من تلك التي قال لي عنها الرجل العجوز ولكنني بعد وقت وجدت نفسي في مكان مرتفع جداً يطلّ على كل شيء فاقتربت من حافة الجبل ونظرت من هناك إلى البيوت والمآذن وكنت أودّ أن أجلس طويلاً وأشم قليلاً من الهواء النقي أو أمدّد ساقيّ من فوق الصخرة إلى تحت وأنظر للمنحدر العميق وبجواري تلك البنت الحلوة وأقبلها وأنا على الحافة ولكن الأمر كان صعباً فلم أستطع أن أمدّ ساقي أو أجلس بجوار الفتاة وأقبلها فعدت من نفس الطريق ورأيت باباً مفتوحاً فتقدّمت نحوه وقلت لأنادي ولكن امرأة بدينة ظهرت من الباب وعلى وجهها ابتسامة ويتدلّى من أذنيها قرط ذهبي كبير أخذت تهز رأسها وتقول: أهلا أهلا تعال فدخلت وشعرت باطمئنان لأنها كانت أول مَنْ كلّمني وقالت: هاتِ «العجلة» هنا فدفعتها داخل البيت وقالت تعال ورائي فذهبت وراءها وكان البيت من الداخل متسعاً جدا وله درابزين من الخشب وقالت اطلعْ ورائي فطلعت إلى الطابق الثاني فأدخلتني غرفة بها سرير نحاسي مرتفع مغطى بالستائر وكنبة ودولاب وصور للممثلين والممثلات وقالت اجلسْ على الكنبة فجلست فسألتني كَمْ معك؟ فسألتها: ماذا تقصدين ؟ فقالت كَمْ في جيبك من النقود؟ فقلت لها: لماذا؟ فقالت ألا تريد أن تفعل؟ فقلت: أفعل ماذا؟ فقالت إن عندي فتاة صغيرة فإذا كان معك كثير من النقود فإنني سآتي بها من الغرفة الأخرى فقلت إن معي نصف جنيه ولم أكن أقصد هذا الشيء ولم أجيء من أجل هذا بل من أجل «السبيل» فقالت أي سبيل؟ فقلت لها إن معي خطاباً وليس به عنوان فضحكت وقالت: يبدو أنك شقي جداً ودمك خفيف فقلت لها شكراً فقالت يمكنني أن أنام معك بنصف الجنيه فقلت لها إنني لا أريد أن أفعل أي شيء ولكنها تركتني وذهبت فأخذتُ أتطلّع إلى الصور العارية والمكان المرتب النظيف ذي الرائحة الغريبة التي تنبعث من أرجائه وقلت لأهرب بجلدي ولكنني فكرت أنها ربما تكون واقفة خلف الباب

ممسكة بيدها سكينا، ثم أنها دخلت بالفتاة وكانت هي الأخرى غليظة وعلى وجهها مساحيق ملونة كثيرة وتلبس منديلا بالترتر وتبتسم نفس الابتسامة فقالت ها هي البنت تفعل حركات غريبة لم ترها طوال عمرك فقلت يا معين ولكنني لن أترك البطاقة فقالت تحلف على المصحف بأن تعود في الغد ومعك الباقي فقلت لها ليس عندي نقود وأريد شلنا فقالت أنت الآن دخلت البيت ورآك الجيران والخروج والدخول هنا ليس سهلا فقلت ماذا أفعل إذنْ؟ فقالت نقسم البلد اثنين فقلت لا مانع وأعطيتها ربع الجنيه ولكنها قفزت وقالت تعال يا حبيبي وأمسكتني بكلتا يديها وأخذت « تبوسني » وقالت الفتاة اتركيه لي فانهالت البنت عليّ « بالتقبيط » حتى مددتني على الكنبة وقالت يمكنك الآن أن تذهب إلى أمك فركضت على السلم وحملت « العجلة » إلى الشارع وركبتها وانطلقت حتى خرجت من الحارة وأصبحت بعيداً عن البيت فنزلت وجلست لأرتاح من التعب وكان هناك كلب أجرب أخذ يقترب مني ويتشمم العجلة ثم إنه رفع رجله وبال عليها وكانت الشمس قد بدأت تشتد فخفت أن يفوتني النهار فركبت « العجلة » وانطلقت وقلت لأنس الموضوع وأذهب وأتجول قليلاً في الخلاء دون هم فقد كان هذا يستهويني طوال عمري ويساعدني على ازاحة الهم الثقيل وأنا على كل حال غير محظوظ بالمرة في أي شيء وفعلاً رأيت أن الوقت مناسب لمثل هذه الجولة من أجل الترويح فقطعت شوطاً طويلا وأنا أغني لنفسي وأصفر حتى يردد الهواء أغنياتي وكان عندنا في الحارة شيخ ضرير يغني أغنيات الهم والكدر، ولكنني لم أتذكر منها شيئاً فأنا أنسى كثيراً كلمات الأغاني بل أنسى أيضاً ذكرياتي وأحاول كثيراً لكنني لا أستطيع وأتعجب من أمر الناس الذين يذكرون أشياء كثيرة من طفولتهم وكان « البدال » قد تزحلق من قدمي فوقعت على الأرض وكادت عربة نقل تدهسني لكنني نجوت وقمتُ ومشيت أجرُّ « العجلة » حتى أخفف الألم القديم الذي تسبب انزلاقي في عودته إليّ مرة أخرى بعد أن افتكرت أنه ذهب ولن يعود ولكنه قبل أن يشتدّ كنت قد وصلت إلى الميدان وكان عسكري المرور ما يزال يصفر فاستدرت إلى اليمين وأخذت أمشي حتى رأيت بعض الناس يجلسون على مقاعد وفي يد أحدهم « شيشة » فقلت ها

هي مقهى ولكنني عندما اقتربت (كما يحدث لي في العادة وتحققت من الأمر) فلم أجد مقهى ولكنهم كانوا جزارين يجلسون أمام محلهم فلم أسألهم ومشيت طويلا حتى وجدت عشة بها ناس يشربون الشاي فدخلت عليهم وألقيت السلام وجلست على أحد الكراسي القش وكان الألم قد اشتدّ بي فطلبت شاياً وأخرجت علبة سجائري ولم يكن معي كبريت فسألت الرجل ذا الأنف الأفطس عن «ولعة» فجاءني «ببصة» أمسكها «بالماشة» وأشعل لي سيجارتي وجاءني بالشاي فشربته وطلبت قهوة سادة فقال إن البن قد نفد فقلت إذنْ شاي فجاءني بكوب آخر شربته أيضاً وأخذتُ أنفث الدخان وقلت: لأسألْ هؤلاء الناس ولكنني وجدتهم مشغولين بأمور يتكلمون عنها بلغة غريبة وحاولت أن أفهم شيئا فلم أقدر فخشيتُ أن تنحرف الشمس فدفعت الحساب ومضيت لأنظر للخطة فوقفتُ وأخرجت الورقة وقرأت الرموز غير أني خشيت من أن اكون قد نسيتها لأنني لم أفهم بعضها فأعدتها للحقيبة مع الخطاب واقتربت من الرصيف وركبت وقلت إن الطريق يبدو صحيحا وأنني غالباً في الاتجاه السليم لكنني يجب أن أنزوي وفكرت في أن أنادي لكنني ضحكت ومضيت في طريقي وأنا أبدل وأبدل حتى وصلت إلى حارة كانت النسوة فيها جالسات على الأرض وهنّ يرتدين الملابس السوداء ويبكين، فقلت: لا بدّ أنه مأتم، وصرخت احداهن فنزلت من فوق «العجلة» ومشيت على الأرض وأنا أحاول ألّا أنظر إليهن وهنّ يرددن أبياتا من الشعر الحزين وقال لي شاب يقف على مقربة من باب خشبي ضخم منحوت عليه بعض الآيات القرآنية إنهم في الجانب الآخر فقلت: مَنْ هم فقال: «هم» فسألته أليست هذه الحارة نافذة؟ فلم يرد فمشيت وأنا أتجنبُ النظر إلى الميتم وأخوض في حفر الطين والزبالة حتى وصلت إلى حارة كانت بيوتها تبعث روائح التقلية والماء والصابون وخراء الدواجن وكان هناك خروف ضخم مربوط من رقبته داخل أحد البيوت يزعق وفتاة تعاكسه وتضحك وتقول له يا حبيبي مالك وقلتُ إنها فتاة هائجة وكانت على يميني عطفة يجلس في نهايتها بعض الرجال وهم يدخنون الجوزة فقلتُ لأبدأ السؤال إذنْ بجدية فقد ضاع مني وقت ولا يجب أن أبدد البقية في المشي بلا هدف

وفعلاً اقتربت وحييتهم فردوا عليّ برجولة وقالوا تفضل فتفضلت وعرفت أنهم يدخنون الحشيش ولم أكنْ قد عرفت كيف أسأل هؤلاء الناس لكن الشاب القوي الغليظ الذي بدا شرساً جدا قال للولد الذي يدور عليهم بالجوزة أن يحييني فجاء الولد الذي كان يرتدي سروالا من سراويل الجيش القديمة ربطه من الوسط بدوبارة وكان وجهه مصفراً جداً وعيناه زائغتين وهو يبتسم وقال لي مساء الخير فقلت له مساء الفل وخفتُ أن أغلظ ولم يكن هذا قصدي فوضع الغابة في فمي وأخذ يلعب بالمصفاة التي بها البص ويحرِّكها في الهواء بسرعة عجيبة والنار تطقطق وهو يضع الحجر على فم الجوزة النحاس ووضع البص على الحجر فكان لا بدّ مما لا بدّ منه فشفطت فلم يطلع شيء وأخذ الرجال ينظرون إليّ وقال أحدهم للولد « سلّك الحجر » فأخذ يعبث بالملعقة في الحجر فمشى كل شيء تمام ووجدت الأنفاس تتخللني وتدخل في أعماقي حتى أن الحجر ولع وطقطق الشيء ورأسي مال إلى مكانه الذي كان يجب أن يكون فيه من الأول وقلت إنني لا بدّ عائد إلى تدخين الحشيش بعد أن كنت قد تركته منذ سنوات وأخرجتُ الدخان من أنفي وفمي وبدت كل المنافذ مشبعة بالدخان وقلت يا سلام فلأقترب وفعلاً قلتُ للشاب ذي العضلات وأنا أنظر لفانلته نصف الكم السماوي والتي عليها صورة « الخطيب » تسمح من فضلك فقال نعم فقلت له إنني في مشكلة عويصة وأنت تبدو من هذه المنطقة فقال نعم ومن أين أنت فقلت من « السيدة » فقال إن أمه من « السيدة زينب » وأن أخواله أصحاب محلات العصير في « السيدة » كلها فقلت له تشرفنا فقال لي ما هي مشكلتك فقلت له إن معي خطاباً باسم رجل يُدعَى « علي » فقال والعنوان فقلت إنه مكان اسمه « سبيل الشخص » فقال أعرفه وسألني عماً إذا كنت مستعجلا؟ فقلت لا ولكن ليس معي حشيش لأجلس معهم فقال لا يهم اجلسْ حتى ننتهي من هذه العشرة وأذهب معك وأشار للولد الساقي الذي كنت أودّ أن أغني له ذلك الموشح فجاء بالجوزة فبالتي وأخذت أدخن وأدخن كما لم أدخن في حياتي أبداً وقلت إن الألم سيزول وسيكون البحث ممتعاً وأخذت أشدُّ الأنفاس بقوة وأنا أفكر فيما سبق فوجدت أن الحجر قد قفز من الجوزة وطق وفرقع وطار قطعا صغيرة فأخذ

الناس ينظرون إليّ ببرود وحقد ولكز أحدهم الآخر فشكرتهم على هذا الكرم وقال الشاب إنني مُعلِّم فقلت لا أبداً لقد كنت أدخن ولي ست سنوات لم أذقه فقال إذنْ وحشك فقلت لا أستطيع أن أجزم ولكن حالي اليوم كرب وربما يكون هو ذلك فقال سننتهي الآن ولفّت الجوزة على الجميع وقال اشربْ هذا فقلت لا يصحُّ فقال لا بدّ فقلت طيب وشفطت الحجر الثالث فرأيت الدنيا غيوما وكل شيء سهل ولم تعاودني أفكاري ولكن ركبتيّ بدأتا ترتعشان فقال الشاب هيا بنا فقمت بصعوبة وقلت له هل المكان قريب فقال ليس قريباً وكنت أودُّ أن أركن العجلة ولكنني أمسكتها فقال هل سنركب فقلت إنني متعب بعض الشيء فقال تعال لآخذك أمامي فقلت لا داعي فليس لي رغبة في الركوب فقال على كيفك ومشى بجواري وسبقني خطوات ودخل من باب قديم وأخذ يمشي في القبو حتى خرجنا من الناحية الأخرى فأصبحنا في « الباطلية » وكان الناس يبيعون الحشيش على الواقف في الطريق ويزنونه بموازين ويكوِّمون النقود وهم يدخنون بشراهة ويأتون بحركات غريبة فأخذنا نمشي بين هؤلاء الباعة حتى ابتعدت أصواتهم وكان يحييهم جميعاً بقصد أن يريني علاقاته العديدة معهم وحاولت أن أقترب منه لأنه يمشي بسرعة وكان هذا متعباً لي وسألته عن اسمه فقال محمد فقلت له إن اسمي يعقوب ولم يكن هذا اسمي لأنه يجب الحذر في مثل هذه الأحوال والمناطق الخطرة فقال تشرفنا فسألته عن عمله فقال إنه يعمل عملا سريا وكانت الجدية بادية عليه ولكنه لم يسألني عن عملي وكنت أودُّ أن أقول له إنني نقّاش ولكنني لم أقل ولا أعرف لماذ تذكرت ديوني الكثيرة والالآم التي تسببها لي في كل مكان ثم إنني فكرت أنه يجب أن أسكت ولكنني قلت إنني كنت زمان أعمل مخزنجياً فقال عند مَنْ؟ فقلت عند الحاج محمد فقال إنه يعمل منذ صغره في هذه المهنة ولم يسمع بالحاج محمد فسألته عماّ إذا كان الأمر ما يزال مجزياً كما كان في الماضي؟ فقال إنه يتقاضى خمسة جنيهات ونصف قرش من الصنف الجيد في اليوم فقلت إنني كنت أتقاضى خمسة جنيهات ونصف وربع قرش فقال إن هذا كان زمان الرخص فقلت لكن هذا العمل أصبح خطراً في هذه الأيام فقال ولا يهمك المهم أن يكون المعلم

متمكناً ومواظبا على دفع الرواتب فقلت كانت في أيامي سهلة فقال والآن أسهل فوافقته ومضيتُ بجواره صامتاً ولكنني لم أعرف ما إذا كان مخزنجياً أم ناضورجيا فالمسألة تختلف لأن المخزنجي في خطر طوال الليل وحتى يأتي النهار ويسلِّم الأمانة للمعلم أمّا الناضورجي فإنه ينظر ولا يفعل أي شيء غير الوقوف على ناصية الشارع فإذا جاء البوليس صفّر لزميله فيصفر هو الآخر بدوره فيخفون البضاعة وينتهي الأمر ولكنه بدا مخزنجيا على أية حال وقلت إن هذا لا يهم حتى نصل وربما تعارفنا واتضح كل شيء وعندما جئنا إلى حارة المغربلين قال لي انتظرْ فانتظرتُ فتركني ومضى فركنت العجلة على حائط حجري كتب عليه الأولاد شتائم قذرة وقلت لأجلس بجوارها تحت الحائط وأنتظر ولكنني لم أستطع أن أجلس لأن عربات الكارو كانت تدخل وتخرج محملة بالفحم والجلود ذات الرائحة العفنة وكذلك النساء اللاتي يطبلن ويضحكن ويقلن « . . . » أمك بلا مناسبة وكانت احداهن ذات عينين سوداوين واسعتين جداً وشفتين حمراوين جداً مبللتين أيضاً وكنت أنا « مسطولا » فأخذت أطيط بالطياطة حتى تبيّنتُ أنه لا يصحّ أن أظلّ هكذا أفعل مثل هذه الأشياء على قارعة الطريق فقلت لألعب بالعجلة كأنها تعطلت لأن احداهن كانت تنظر من النافذة فوقي وصدرها عارٍ تماماً ومنتصفها بارز خارج الشباك وكانت تهتز ثم إن البيت المواجه كانت له مشربيات أحسست أن هناك مَنْ يرقبني من ورائها فأخذت أفك الجنزير لأشغل نفسي فسقط الجنزير وحاولت أن أعيده إلى مكانه لكنني لم أستطع حتى مللتُ وكانت مشكلة جديدة على الرغم من أنني أعددت العجلة وزيتها قبل أن أبدأ البحث وتأكدت من أن الجنزير لن ينفكّ ولكنه قد انفكّ وكان الوقت يمضي حتى جاء الشاب وقال تعال ورائي فقلت هل وجدته؟ فقال تعال وسترى فمشيت خلفه حتى دخل بيتا وقال اتبعني واركنْ العجلة وراء الباب وكان أحدهم يقف خلف الباب وفي يده شيء لامع وقال محمد إنها الاحتياطات وطلعنا على سلم خشبي في بيت واسع مدهون بالجير الأبيض وبه فوانيس نحاسية معلقة في السقف الخشبي ودخل بي حجرة واسعة كان بها كنب قديم مفروش بالسجاد المزركش وفي الجهة القصوى جلس رجل ذو جلباب أبيض وطاقية بيضاء

وأمامه صينية نحاسية عليها أكواب ملونة وكان هذا الرجل يدخن الشيشة ولا أحد معه فدخلت وسلّمتُ فأشار إلّي بالجلوس على الكنبة المجاورة وتركنا محمد ثم أنه لم يقلْ شيئاً ولكن جاء صبي يرتدي حلة مزركشة بالقصب وعلى رأسه طاقية حاملا صينية عليها كوبان من الشربات الأحمر فشربت فإذا به ذو رائحة عطرة وكنت في حاجة شديدة إلى مثل هـذا الشيء البارد وأشار عليّ بشرب الكوب الآخر فتمنعت ولكنه غضب قليلاً ولم يبتسم إلاّ وأنا أتناولِ الآخر وأتجرعه وأتكرع وقال هنيئاً فقلت: شكراً وانسحب الغلام فأخذتُ أتطلع إلى السقف المنقـوش بالآيـات القرآنيـة والجدران الملونة وانتظرت أن يقول الرجل شيئاً لكنه لم يقلْ فوضعت يدي في الحقيبة الجلدية وأخرجت الخطاب وقلّبته ثم وضعته بجواري على الكنبة فلم يقلْ الرجل شيئا حتى انتهى من تدخين الشيشة وصفق بيديه وجاء الغلام وقال له خذ الشيشة ولم يلتفت إلّي ولكنه راح يحدِّق في صورة كبيرة لرجل ذي شارب وجبهة عريض المنكبين طويل القامة واقف وبجواره طاولة عليها مسدس وأخذ يبتسم وقال دون أن يحول نظره عن الاطار المذهّب أهذه هي الرسالة فقلت نعم فقال مفتوحة قلت نعم فقال ما بها قلت إن بها عبارة فقال ما هي فقلت « نحن قادمون » فقال ما هو العنوان فقلت إنه « سبيل الشخص » فقال والرجل قلت إن اسمه « علي » فقال اسمعْ قلت نعم فقال هل تعرف جامع السلطان قلاوون قلت أعرفه قال بعد أن تتركه بقليل إسأل عن عطار يُقال له « أحمد » وقلْ له إنك من طرفي فسيدلك على الفور فقلت إنني شاكر فقال اذهبْ الآن فتركت المكان وكان الغلام يفتح لي الأبواب حتى وصلت إلى الباب الخارجي في نهاية الممر وكـان الشاب حامل النصل لا يزال واقفاً وراءه بجوار العجلة فسألته عماً إذا كان بامكانه أن يساعدني في تركيب الجنزير؟ فرحّب بذلك وبالفعل تمكنا من اعادته إلى مكانه في لحظات وحملتها للخارج واقتربت من حجر ارتفعت عليه بينما كان الشاب يطلُّ برأسه من داخل الباب واسترحت على الـمقعد وجعلت الحقيبة من الأمام وتحركت ولم يكن محمد هناك فلم أسأل عنـه وسرت حتى وصلت إلى قبو نـازل ارتفعت بعده عـلى طريق مـرصوف بالحجارة وعبـرت ثلاث حـارات ثم وصلت إلى « باب زويلة » ورأيت

الشناكل التي كان السلاطين يعلّقون عليها رقاب الناس وتعجّبت من تشعب الطرق والأزقة ونغمها المتباعد المتقارب ونزلت عدة مرات لأتفادى الاصطدام بعربة ترمس تحيط بها القلل المغطاة بأهرامات نحاسية وعربة يد يجرها عجوز وكذلك عربات أخرى تجرها حمير وخيول وبغال مختلفة بعضها ضعيف وبعضها قوي وعطست من رائحة الشطة التي تنبعث من محلات العطارة المتزاحمة على جانبي الطريق المكتظ بالمارة ذوي الملابس الملونة وكان على يميني سبيل فقلت لأسأل عن اسمه لكنني استبعدت الفكرة على الفور لأن الأمر لم يكن بهذه السهولة وإلاّ لدلّني عليه أول شخص سألته فاقتربت من ضريح الغوري بصعوبة شديدة وكنت أود أن أنزل وألقي نظره على الضريح لأن قبته مرتفعة جداً ومنقوشة بشكل عجيب ولكن حركة المارة أجبرتني أن أندفع للأمام وأعبر شارع الأزهر دون أن أرى القباب أو المآذن ودخلت الجانب الآخر من شارع « بين القصرين » حيث الروائح القوية تنبعث من المحلات المكتظة بزجاجات العطر الملونة وكان عليّ أن أخترق سد البشر الذاهبين والعائدين في سوق « الموسكي » وهم يحملون أجولة مليئة بالعلب البلاستيك والأواني النحاسية وحتى اقتربت من جامع قلاوون كان رأسي قد امتلأ بالأصوات وعيناي بالألوان وأنفي بالروائح وعلقت بي كل تلك البقايا حتى شعرت وأنا أستند بكفي على حجر الجامع محاولاً النزول أنني مثقل للغاية وأخذت أجرُّ العجلة متوقعاً سقوط الجنزير في أية لحظة محدِّقاً في المحلات لكنني لم أجد عطارا فسألت حلاقا فقال بعد عشرين مترا تجد حارة تُسمَى حارة « الأخت » وهناك بيت على اليمين عليه رسوم الحج هو بيت ذلك العطار ومحله وقال لي رجل مغطى بتراب الحناء إنه ذهب إلى الجامع وربما وجدته في « الميضة » أو الضريح فسألته عماً إذا كان بامكاني أن أركن العجلة فرحّب بذلك فتركتها وذهبت للجامع ودخلت « الميضة » لكن أحداً لم يكن هناك سوى شحاذ يرتدي الخلق الملونة ويشرب من الحنفية فلم أسأله ودخلتُ ساحة الجامع وكان هناك عدد من المصلين قلت أيهم أسأل وأنا لا أعرف شكل الرجل ولا حجمه ولا سنه وربما كان في الأمر بعض المخاطر فعدلت عن ذلك وعدت للرجل وقلت لأنتظره هنا وقال إنه قد جاء وأنه

قد نادى عليّ كثيراً وكـدت أسألـه كيف ناديت عـليّ ولكنه قـال تعال وقلت إنه ربما قال «يا صاحب العجلة» وكان الرجل جالساً خلف مكتب قـديم مطرز بـالصـدف فقـال نعم فقلت لـه إنني قـادم إليـك لتـدلّني عـلى « سبيــل الـشخص» وأن اسـم الــرجــل الــذي أبحـث عنــه «علي» وأن معي خطاباً به كلمتـان فطلب أن يـرى الرسـالة وقـال إنه يجب أن يـرى كل شيء بعينيـه فقلت له إن هـذا طبيعي فقـال لكن الناس تعوّدوا على شيء آخر فأعطيته الرسالة وجاء رجل الحناء بكوب من التمر هندي فشربته وشكرت الرجل لكنه لم يرد عليّ لأنه كان مستغرقاً في تمعّن الرسالة وأخرج عدسة مكبرة راح يدقق بها في أطراف الورقة فقلت إنه ليس لها شيء آخر فقال إنه من الممكن أن يكون بها شيء آخر مكتوب بحبر سري وأنه لا يجد الأمر مبررا فقلت إنني لا أستطيع أن أجزم فقال ولا أنا وترك الرسالة أمامه على المكتب وأخذ يعبث بين الدفاتر والاضبارات القديمة ولكنه عاد للاستغراق والنظر إلى النافذة حيث كان الضوء ينعكس خلفها على البيوت وقال هل يمكن أن تمرّ عليّ مرة أخرى فقلت إنه يمكنني وسأل ضاحكاً عمّا إذا كنت أريد شيئاً من هذه العطارة فقلت إن عندي ألماً شاملاً فقال انتظرْ فانتظرتُ فأخذ يخلط لي عددا من الأنواع في قرطاس وقال إنه في انتظاري فقلت كَمْ أدفع؟ فقال إنها مجانا فشكرته ومضيت راكباً الدراجة وقلت لأعتمد من الآن على نفسي ولا يجب الاتكال على أحد وأن الوقت ضاع سدى وما كان يجب عليّ أن أفعل ما فعلت ولكنني فكرت وأنا أبدّل وأبدّل ما إذا كان بامكاني أن أفعل شيئا آخر في الوقت الذي فعلت فيه ما فعلت؟ فلم أجد وهكذا مضيت حتى « باب الفتوح » وأخذت أقرأ اليفط في أركان الحارات والشوارع حتى شعرت فجأة بجوع فأخذت عندئذٍ أبحث عن المطاعم حتى وجدت واحـداً رخيصا وأكلت فـولا وطعمية وشربت شايا في مقهى كان الجميع فيه يلعبون القمار وصاحب المقهى يخرج وينظر في الشارع ويعود ويقول بسرعة بسرعة ويزيدهم حماساً وهم يطرقعون بالورق على الطاولات الحجرية وفوجئت بأن أذان الظهر قد بدأ فانطلقت وقلت ها هو ذا النهار يضيع مني ولكنني عدت وقلت لا يجب أن ألتفت لموضوع الوقت فالمهم في مثل هذه الحالات أن تصل ثم انني مضيتُ

على هذا حتى وجدت نفسي في طريق «الدرّاسة» وقلت إنها بداية جديدة من مدينة الموتى وأن حراس المقابر أو الذين يسكنونها ربما يعلمون عن الموضوع فالحراس على علم واسع بالأماكن والأشخاص وربما بالزمن أيضاً فهذا سيكون مفيداً فيما إذا كان المكان قد اندثر ولا بدّ أن أحداً من عائلته قد مات إذا لم يكن هو قد مات ويكون من الممكن عندئذٍ أن أصل إلى بداية خيط فهو المطلوب في هذه اللحظة وأن مجرد الوصول إلى هذا الخيط يعني أنه لم يبق إلاّ مسألة الزمن وأنني على استعداد لتوفيره ولو أنني سأبقى طويلا فوق عجلتي على الرغم من تلك الآلام وأن دوائي معي على كل حال وعند أول مصدر للماء سأتجرّع القليل منه فربما تلاشت الأوجاع واستحالت إلى متعة وأنني وقعت على الشيء الصحيح في وقته الذي كان يجب أن أقع فيه عليه قبل أن تأتي الأوقات التي تجعلني أشعر بأنه لا جدوى وأنني يجب أن أنزل من فوق العجلة وسألت عن نهاية المقابر فقال الرجل العجوز إنها بلا نهاية وأن الجبل هناك وكان هناك خبز جاف ملقى بجوار أحد الشواهد وكان هذا الشاهد محوطاً بالصبار وعدد من الكلاب تدخل وتخرج من أبواب المقابر وكان هناك باب حديدي تحركه الريح فمضيت وكانت هناك جنازة يتقدمها النعش الذي يحمله الرجال فوقفتُ ورفعت أصبعي وقرأت الفاتحة ثم إنهم ابتعدوا فواصلت سيري حتى وصلت إلى تلك المقابرِ المكتظة بالمهاجرين فسألت شابا فقال إن أفضل شخص يدلني على أي مكان أو شخص في هذا العالم هو الشيخ حسن وقادني إليه فأدخلني إلى حجرته المكتظة بالأشياء والروائح وقال إنه كان بامكانه أن يساعدني لو كنت أعرف اسم الأب ثم قال إنه يعرف كثيراً من السبل التي يمكنه أن يدلني عليها فهناك سبيل شارية وسبيل سليمان باشا وسبيل اسماعيل أفندي الخربوطلي وسبيل السلطان الغوري وسبيل الشاويشية وسبيل السواقي وسبيل شريفة شلته وسبيل آغا الباب وسبيل السلطان مراد وسبيل باب الغرب وسبيل المصطفاوية وسبيل كخية، بعضها قد اندثر وبعضها موجود ولكنه يستطيع أن يدلني على أماكنها جميعاً لكن « سبيل الشخص » هذا لا يعرفه فقلت إنه من الممكن أن يكون المقصود بالسبيل شيئاً آخر فقال ربما ودعاني لشرب الشاي ولكنني لم أجد رغبة في

شرب الشاي وأخبرته أنني ربما استعنتُ به في وقت آخر فلم يقلْ شيئاً وهكذا كان عليّ أن أعبر مدينة الموتى وذهبت حتى « السيدة نفيسة » بعد أن قطعت الطريق الطويل المحفوف بالجبال والمنحدرات والقلاع والأسوار وكانت المحاولة مستمرة ولم يوقفني أحد وعجلتي في يدي وكان هناك رجل يركب عجلة أيضاً نظر إليّ وقال إنني أعرفك ولم أذكر ولكن وجهه كان مألوفاً وقد بدا عليه التعب والقلق وامتلأ قميصه بالعرق فسألني عن طريقي فقلت إنني متابع المشي في محاذاة الخليج حتى السيدة نفيسة فقال لا بدّ أنني ذاهب للضريح فقلت إنني ذاهب للبحث عن رجل يُسمَى « علي » في منطقة تُسمَى « سبيل الشخص » فقال إنه لا يعرف مكانا بهذا الاسم ولكن الرجل الذي يعمل عنده ربما عرفه فقلت له لماذا؟ فقال لأنه عالم في الآثار فسألته عما إذا كان ممكناً أن أراه؟ فقال إنه ذاهب الى بيته وأن بامكانه أن ينزل من فوق العجلة ويكتب لي العنوان فقلت إنني لا أريد عناوين فقال إنه متعب الآن ولكنه يستطيع أن يذهب معي في الغد فواعدته عند محطة الأتوبيس في التاسعة صباحا وأسرع وكنت أودُّ اللحاق به ولكنه ابتعد واختفى عند المنحدر ولم تكن بي قوة فاعتراني الخمول والكسل فدخلت السيدة نفيسة، وكان أفضل مكان أبدأ منه هو المقهى فجلست وشربت قهوة ولم أسألْ أحدا وبعد وقت قاومت تلك الرغبة ومشيتُ بجوار عجلتي وأخذت أقرأ اليفط وأنظر للبيوت ثم انني سألت شابا فقال إنه يعرف الطريق فهل لديّ رغبة في معرفته ولم أعرف عن أي شيء يتحدث فقال إنهم هناك فقلت مَنْ هم فقال تعال معي وأخذني إلى ربع قديم يجلس الأطفال أمام حجراته حتى طلعنا إلى حجرة صغيرة في الطابق الثاني مكتظة بالمجلات والكتب والأوراق وبها ثلاثة شبان يتوسطهم واحد ذو لحية كثّة وكانوا مرهقين جداً وقالوا اجلسْ معنا وأعطوني سيجارة فقلت إنني أدخن السجائر اللف وأخرجت علبتي المعدن فسألني ذو اللحية عن اسمي؟ فقلت له أول اسم خطر على بالي وهو « علي » فقال الذي قابلني في الطريق: إنه يبحث عن شخص فقلت إنني فعلاً أبحث عن « سبيل الشخص » فسألني عما إذا كان هذا اسمه؟ فقلت إنه اسم المكان الذي به الشخص ولكن اسم الرجل « علي » فقال إن هذا عجيب فاسمك

« علي » وتريد شخصاً باسم « علي » وأنا أيضاً اسمي « علي » فلماذا تريده إذنْ فقلت إن معي رسالة وأخرجتها على الفور فأخذها وقرأها وراح ينظر لرفاقه وقال لهم غامزا: إنها مهمة للغاية وأخذ يردد العبارة وسألني منذ متى وأنا أبحث؟ فقلت إنني أبحث منذ الصباح فقال إن الأمر يهمهم جداً وسألني عن امكانية أن أترك الخطاب معهم حتى الصباح فقلت إنني لا أستطيع فقالوا إنهم سيذهبون إلى الغرفة المجاورة وأغلقوا الباب فتمددت على الكنبة وأخذتني غفوة ثم إنهم جاءوا فاستيقظت واعتدلت وعرضوا عليّ أن أستريح عندهم فقلت إن لي بيتا فقالوا إنهم قد ناقشوا العبارة فقلتُ أي عبارة فقالوا «نحن قادمون» فقلت ثمّ ماذا فقالوا إنهم يودّون أن يفعلوا شيئاً فقلت ما هو هذا الشيء؟ فقالوا سنقول لك بعدين فقلت إن الوقت يمضي فقالوا لا يهم أن يمضي الوقت وشربت شايا وودعتهم وانصرفت ثم إنني مشيتُ ومشيتُ حتى خرجتُ من الحارة والحارة الأخرى فاعتدلت الطريق وركبت العجلة وشعرت بأنني حصلت على بعض الكلام وكانت الشمس قد بدأت تصفر فقلت إن أمامي بعضاً من الوقت وتركت نفسي للمزلقان حتى وصلت إلى « السيدة عيشة » وقلت لا فائدة من هنا ووجدت شيخا يضع على رأسه عمامة خضراء ويرتدي الجبّة والقفطان وفي قدميه مداس ظهرت منه أصبعه الابهام فنزلت وسلّمت عليه فقال كأنه يعرفني فقلت إن عندي مسألة فقال إنه سيجد حلا إنْ شاء الله وأشار إليّ بأن أتبعه فمشيت خلفه فأخذ يخبُّ ودخل من تحت سور الخليج ودخلت خلفه وجاء إلى زاوية وخلع حذاءه وقال اركنْ العجلة فركنتها وخلعت حذائي ودخلت وأنا أنظر ما إذا كان هناك شخص يلعب بالعجلة ولكنه قال تعال فذهبت فوضع حذاءه بجواره على الحصير ففعلت مثله ثم جلسنا بجوار العمود وقال « ها » فقلت يا مولانا ان معي رسالة فقال أعطني أيّاها فقلت إنها ليست لك ولكنها لشخص يُسمى « علي » ويسكن سبيل الشخص فقال أرني ايّاها فأخرجتها من الحقيبة وقلت إنها مفتوحة فأخرج الورقة من المظروف وقرّبها من عينيه وكانت السبحة معلقة في كفه وحباتها تطقطق والزمن يمضي بهدوء وغلاسه حتى أنني أخذتُ أتطلّع إلى السقف الخشبي ورأيت طيورا غريبة تقفز من ركن إلى آخر ثم إنه قال اسمعْ فقلت

نعم فقال إن هذا الأمر يحتاج إلى مَنْ هو أرفع مقاماً فقلت كيف؟ فقال إنني في حاجة إلى مشوار إلى طنطا فالرجل الذي عنده الاجابة هناك فقلت ولكن كيف الذهاب إلى طنطا فقال نذهب كما يذهب الناس فقلت له طيب وكان في بالي أن أخادعه و أمضي ولا أعود فقال هيا بنا الآن فقلت له إنني في حاجة لأعود إلى أهلي وأخبرهم وأنهي بعض حوائجي فرأيته قد زعل فوضعت الرسالة في حقيبتي وعلقتها في رقبتي وسلّمت عليه راغباً في التزويغ ولم أحدد ميعاداً فقال اسمعْ فقلت نعم فقال وجدت حلا مؤقتا فقلت ما هو هذا الحل فقال مشوار قصير هيا اتبعني فقلت هذا سهل ومضيتُ خلفه فأخذ يهم وأنا أهم خلفه بعجلتي وأنا أجرها فأخذ يدخل في السراديب والأزقة والحواري وأنا أتبعه وهو يطلع من زرقوب ويدخل في آخر ونحن على هذه الحال حتى جاء إلى باب كبير ودخله وإذا بنا داخل ساحة واسعة وبها ذكر ورجال يهتزون ويصرخون ويقولـون الّله الّله والشيخ جالس على الأرض في وسطهم وقد أشار هو إليه ففهمت أنه المقصود فأمسكني من يدي وقال تعال فأخذ هذا الاسم فركنتُ العجلة بجوار زير عليها غطاء عليه كيزان كثيرة مربوطة بحبال ووقف هو في الصف ووقفت بجواره وأخذنا فترة حتى دخلنا في الدور لأنهم كانوا في الوجد ووجدتها فرصة وأنا أتوه وأغيب عن العالم وأنا افكر في الراحة فإذا بي في حالة انبساط وقد فارقتني روحي وأخذت أغيب وأندمج ولم أعـرف إلّا وهو يمسكني من كتفي ويقول وَجِدوه فجلست وأنا دائخ وقلبي يدق فإذا به يأخذني إلى الشيخ وقد مال على يده وقبلها وسحب يدي إليه فإذا بي أقبل يد الشيخ وأرتاح لذلك وأنا لم أفعل هذا أبداً ثم إنه قال للشيخ يا سيدي هذا رجل باحث عن « علي » فهزّ الشيخ رأسه مرات فأخرجت الخطاب وأعطيته الورقة فقرأها ووضعها بجواره وقال اقتربْ ووضع يده على رأسي وأخذ يقرأ أشياء ثم إنه رفع يده من فوق رأسي ونظر إليِّ يحدِّق في وجهي طويلا وقال: توسّل بالّله تجد الطريق فقلت نعم بالله فقال يجب عليك الاغتسال فقلت إنني نظيف دائمًا فقال إنه يتنبأ بأنني سأصل إلى مرتبة عليا ثم إنه أخرج حجاباً ملفوفا في قماش ووضعه في يدي وقال احتفظْ بهذا دائمًا ولا تتركه فقلت إنني سأفعل وخفت أن يطلب مني نقودا وأنا ليس معي كفاية

وكان الناس يذهبون فذهبتُ أنا الآخر وتركت ذا العمامة الخضراء وركبت عجلتي وواصلت سيري فوجدت الشمس وقد بـدأت تنزلق إلى المغيب وكان التعب قد أدركني فنزلت وجلست على حجر وما هي إلاّ لحظات حتى وجدتني أكلم نفسي بأشياء وقلت: « ها » ووقفت وركبت وأخذت أبدل وأبدل وتعبت رجلاي وتقلّصت عضلاتي وأنا أكاد أصطدم بالعجلات في كل وقت لكنهُ لم يحدث شيء من هذا حتى وصلت إلى المقهى أيّاه فوجدت العجوز يلعب الطاولة فجلست بالقرب منه وشربت شايا واستندت للوراء وكان النوم يغالبني ومع هذا انتظرت حتى انتهى من اللعب وكان يبدو خسران فقال لي أنت هنا فقلت إنني ايّاه فقال وماذا فعلت فقلت إنني بذلت جهدي فقال اقتربْ مني فاقتربتُ منه فقال إن عندي فكرة وراح فعلاً يفكر ثم نظر إليّ وقال كيف الأحوال فقلت عال فقال إن الحياة هكذا فقلت أفهم فقال إنه أحياناً يجد عنده رغبة في الموت فقلت له وما لهذا وموضوعنا فقال إن له علاقة فقلت أفهم فقال إن كل شيء في الحياة هو منها فقلت طيب فقال ما دام هذا في الحياة وهذا في الحياة فهي شيء واحد فقلت فهمت فقال لو أنها عندي سهلة لكانت عندك سهلة فقلت إنه حدثني من قبل على أنه تغلب على الصعوبات فقال إنه لم يتغلب عليها ولكنه تركها تمر فمرت فقلت آه فقال إنه سيفكر الليلة في موضوعي فقلت طيب امشي أنا فقال لا لا تمشي ثم إنه وقف ودفع الحساب وسلّم على الناس وقال تعال معي فقلت إلى أين فقال إلى بيته فقلت وماذا نفعل فقال إن عنده صندوقاً قديماً في البيت وأن به مخطوطات قديمة فقلت وماذا نفعل بها فقال نقلب فيها طبعاً فقلت في عقلي ومَنْ يعرف ومضيت معه فتركني واقفاً بعجلتي عند الباب طناش نحو ساعة زمن ثمّ عاد وقال لا مؤ اخذة تعال فدخلت فقال هاتِ العجلة في الصالة ودخلت معه حجرة بها كنبة اصطنبولي ودولاب وبيجامة مخططة معلقة في الحائط ونتيجة قديمة فقال زحزح معي الكنبة فزحزحتها فأخذ الصندوق يظهر ونحن نحركه بصعوبة حتى أخرجناه من تحتها فجلس يلهث على الكنبة وخلته سينفق ولكنه قال معلهش فقلت إنني آسف فقال ولا يكون على بالك فأخرجت الحقيبة من رقبتي فقال ارتاح فقلت هل يبدو أنني قلق فقال لا مهموم قليلاً ثمّ إنه طلب مني الخطاب وأخذه في يده وبسطه على الكنبة ثم رفع غطاء الصندوق وقال يا ساتر فإذا

بروائح قديمة تطلع من الأوراق والمخطوطات فأخـذ يعبث ويعبث حتى أخرج كتابا بعينه وقال ها هو ذا الذي يتحدث عن الزمان ووضعه جنب الورقة وأخذ يعبث وأخرج كتابا آخر وقال ها هو ذا الذي يتحدث عن المكان ثم أخرج ثالثا وهذا عن الأعداد ثم إنه أخرج من جيبه نوتة وقلما وقال امسكْ هذه فأخذت النوتة والقلم في يدي فقال احسبْ معي كلمة « علي » فقلت كيف؟ فقال: لا تسأل إن العين تساوي ٧٠ واللام تساوي ٣٠ والياء تساوي ١٠ فيكون المجموع ١١٠ ثم إنه راح يجمع ويطرح ويقسم وهكذا فإذا بالنتيجة ١١٥٣+١١٠=١٢٦٣ جاءت من جمع « علي » و « سبيل الشخص » واضافة « نحن قادمون » فأصبح عندنا ١٦٦٨ فقال إنه يمكن أن يكون هذا هو الزمن فقلت بالهجري أم بالافرنجي فقال بالهجري طبعاً فقلت إن هذا باقٍ عليه قرون وقرون فقال طبعاً ثمّ إنه اعتدل وقال: ياه الواحد تعب وما نحن كذلك حتى سمعنا طرقات على باب الحجرة فقام ومدّ يده وجاء بصينية بها كوب من الشاي فـأخذت أشـرب وأنا أنتظر حتى وجدتـه ينـام فقلت سـأذهب أنـا فقـال طيب سأفكر أنا فقلت إنني سأمر عليه ثم إنني ودعتـه وأخرجت عجلتي من الصالة إلى الشارع وأخذت أمشي بها حتى وصلت إلى بيتي في أمانوطرقت الباب ففتحت خالتي ولم أسمع هيصة فقلت اين الأولاد فقالت إن زوجتي ذهبت إلى بيت أمها لتلد طفلها هناك فقلت وهل جاء الوقت فقالت إنها شعرت بآلام وكان هناك ماء كثير فقلت إنني جوعان فغادرت الغرفة وأنا أنظر لمطرح الأولاد وجاءتني بسلطانية مرق وفتة فأكلتها ودخنت سيجارة ونمت في مكاني حتى أيقظني أذان الفجر وأخذت أقاوم النوم وأنا أقـوم وأفتح الشبـاك وأشعل المصباح وأخذت أتطلّع للسماء الزرقاء والنجوم تغوص فيها نجمة نجمة حتى جاء الضوء كله فدخلت دورة المياه وتبولت وغسلت وجهي وعدت فإذا بخالتي قد استيقظت وأشعلت الوابور وعملت لي شايا فشربته وأنا ألف السجائر التي أحتاجها وقلت لها أعطني جنيها مما معك فأعطتني الجنيه فوضعته في الحقيبة وفتشت عن الرسالة فوجدتها فعلّقت الحقيبة في رقبتي وأخذت عجلتي للخارج ومشيت بها حتى جئت شارع « مراسينا » وكـان هناك رجـل يبيع الفـول على عـربة والنـاس من حولـه يـأكلون

ويضحكون فنزلت وطلبت فولا وبصلا وأخذت آكل حتى امتلأت ولم أستطع بعدها أن أركب العجلة فأخذت أمشي ولم يكن هناك زحام في الشارع وكانت المشربيات والمنارات والقباب لها روح من المماليك والفاطميين والعثمانيين وغيرهم وغلالة الصباح غمرت روحي فاعتراني الكسل والرغبة في هذا اليوم وقلت إنني أتبع طريقة العدّاء فأبدأ بهدوء ثمّ أتدرّج وأتدرّج حتى لا أتعب وفعلاً ركبت العجلة وفعلت هكذا وأنا آتي للنواصي وأنظر لليفط وأقرأها ثمّ أمشي وهكذا حتى جاء موعدي عند المحطة وكان الناس قد بدأوا يسرعون بفتح الورش والروائح تتصاعد وأنا أفكر في موعدي وفي الموضوع فإذا بي أشعر وكأنني لا أريد ولكنني قلت إنني أريد أن أفعل هذه المرة ما لم أفعله من قبل مرة واحدة في حياتي دون أن أسأل ولو كان في ذلك بعض التعب لكنني أكون عندئذٍ قد فعلت شيئاً ولو أنني أضعت من وقتي وجهدي ما ضاع من قبل فأين هو الآن وأنا كنت أتحرك من قبل كثيراً كما «البدال» في أي اتجاه وأي هدف وقلت يا ولد إن كل ما هنالك يريدك أن تتراجع فأخط خطوتك ولا تتراجع عن الخطة وتجاوز العطب والفساد فهأنذا متزوج وصاحب أولاد وعمل فماذا غير أنه كانت الخيوط تحركني كما الدمية وأنا هكذا قبل حتى أن أصل إلى مَنْ يدلّني على أن «سبيل الشخص» كان هنا لكنه اندثر في وقت لو أنني عرفته فإن ذلك حسن وأن «علي» ربما مات وخلّف من ورائه شيئاً وربما أنه لم يترك من ورائه أي أثر وأن شيئاً ما بالنسبة له كان متعلقاً بهذه الرسالة وهأنذا أحملها بعد فوات الوقت ولكن كان هناك مَنْ واتته الحماسة لأن يحملها ويظل باحثاً عنه يوماً أو يومين حتى ارتبط الخيط بالتاريخ الغائب الذي لم يتطابق مع زمننا لكنني شاهد وحملت العجلة وأنا أصطدم بآخر حجر في الطريق المتعرِّج الذي انتهت إليه المحاولة دون أن تخرج المسألة عن الطبع الذي وجدت عليه منذ الأزل وحتى الأبد الذي ما أنا إلاّ مجرد ذرة فيه تتراكم مع السنين والأيام والعصور والتواريخ لتأتي السيئة والحسنة والشد والجذب وأنا بين فكي الرحى وهي تدور وتدور فتتركني هشيما أو تفلا يُلقَى في الصفائح ويحمله الزبالون في المقاطف (أيها الزبالون أين أنتم) ويملأون العربات المتهالكة التي تجرها الحمير الضعيفة ويحرسها الأطفال الزبالون القذرون الضعاف وهم يقاومون الذباب الذي يحوم ويرتاح على

رؤوسهم المليئة بالقمل والبقع المتخثرة وتفوح منها الروائح التي اعتادوها كما اعتدت أنا أن أحمل ألمي في جنبي وأمشي وتمر الأيام والسنون وأنا أخفيه أحياناً وأظهره أحياناً لكن القدرة والوقت لا يسعفان فأمشي به وأنا أبدِّل وأبدِّل وأقطع الطرق والحواري وأقاوم الفكر فلا أجد طعمًا للنوم أو الطعام أو امرأتي وأفعل ما أفعل وأنا على عجلة من أمري تقودني الرغبة في أن أنهي اللحظات بطريقة من الطرق التي لم أكن قد عرفتها حتى أجدني وكل شيء قد اهتزّ من حولي وأصابني العطب وأنام وأرى زوجتي والأطفال يسعون وأستيقظ وقد تربىّ العملاق الكسول ومدد قدميه تحت الشجرة اليابسة وضحك فجأة ولبس التاج من الريش الملون وقاد المركبة الذهبية التي تجرها الخيول المطهمة ومن حولها تجري الأسود وهو يجتاز الجبال والسهول والصحارى الصامتة تغني بها الريح تلك الأغنية الممدودة وأشعة الشمس تنتفض على دروعه الذهبية وتتلاشى عند الغروب حيث يبدأ صوت الضفادع والجعارين يتبادل النغم والريح وأمواج النيل المتكسرة على الشاطىء المكتظ بالأعشاب والطيور الملونة وأنا أبدل وأبدل حتى أنتهي إلى نقطة أبدأ منها وعندما أفكر في الذين قابلتهم ورأيتهم أجد أن الأمر حسن وأن ذلك أفضل مما لو لم يكن سواء حاول الرجل العجوز أن يقرئني المخطوطات أو عدّد لي حارس الموتى تلك السبل التي عرفها أو أراد هؤلاء الشبان أن يشعروني بالخطورة أو أن يأخذ الشيخ بيدي في الطريق أو مدّني العطار بالبلسم الذي يشفي جميع الأمراض ونسيته على المقهى فكل هؤلاء أفادوا بأنني يجب أن أمشي في أماكن جديدة ولكنني أحاول الآن مرة أخرى مع الطباخ الذي كان راكباً عجلته وهاأنذا أقف تحت مظلة المحطة وأنظر وأتابع الواقفين في قلقهم حتى ألمحه قادماً فاعتدل الطريق وأنا أبتسم وأتبعه وهو يقودني في الطرقات المتشعبة حتى نصل إلى الطريق المنحدر في قلب الجبل إلى أعلى « المقطم » وأدخلني معه حديقة واسعة بها كل أنواع الزهوروانتظره على الباب وهو يدخل وينادي عليٍّ من مشربية في الطابق الثاني فإذا بي في ردهة واسعة مليئة بالطنافس والزجاج المعشّق وأجلس على كنبة قديمة فيأتي الرجل مرتدياً الروب دي شامبر ويمد يده إليّ ثم يسألني عن حالي وهو يدخن البايب فأضع يدي في حقيبتي وأستخرج الرسالة

فيقرأها مندهشاً ويظل يحدِّق بها ثم يأتي بالنظارات ويقلبها مرة ثانية ويهز رأسه ويقول كلمة بالانجليزية ثم يسألني عن الأماكن التي ذهبت إليها والرجال الذين قابلتهم واحداً واحدا فأعددهم له واحداً واحدا وأحكي له ما جرى لي معهم فيهز رأسه ثم يحكي حكايته مع الآثار وكيف عرفها وأين سافر وماذا رأى ومع مَنْ تحدث ويقول إنه لم يسمع قط بهذا العنوان(فهل مَنْ سمع؟) ولم يعرف أيّاً من السبل بهذا الاسم وهذا الوصف ويقول كثيرا عن سبب خلوته وجنون عشقه بعد أن عرف حكاية رجل اسمه « ماربيت » جاء إلى هنا واهتاج وقال كلاماً وحمل خرائطه وذهب إلى « « سقارة » فأخذ يبحث وينقب حتى وجد مقبرة العجول التي كان الفراعين يعبدونها فأسرع ولكنه قال إنه سيتركني لحظات وذهب للداخل وعاد ومعه ملف مليء بالأوراق أخذ يقلبها ويحدِّق فيها ثم إنه قال إنه يئس وأنه عندما يحس بهذه المشاعر فإنه لا يقدر على النظر في الموضوع وقال إن هناك رجلاً اسمه « حسن » ذو لحية بيضاء وثياب رثّة من الكتان الخشن يعيش في عشة صغيرة بجوار الأهرامات على علم واسع بسير الملوك والحكام وغرائب الزمان وما جرى في التواريخ السابقة والأيام الغامقة وأنه يحسن بي الذهاب إليه وسؤاله عن المكان وألاّ أغضب إذا شخط أو نهر فإنه من الممكن أن يكون عارفا بسبيل الشخص وهذه حاله وأعطاني الرسالة فقمت ووضعتها في حقيبتي وعلّقتها في رقبتي وعملت على رحلة طويلة وركبت عجلتي لتوي واتجهت خارجاً من الشوارع المرتفعة وأنا أهبط مع الجبل حتى جئت الميدان وكان عسكري المرور يصفر فاعتدلت الطريق السائر في محاذاة مجرى العيون إلى مصر القديمة ومنعت نفسي عن الأفكار حتى وصلت إلى مفترق الطرق عند « السيدة نفيسة » ونظرت إلى المكان الذي قابلت فيه الرجل ومضيت حتى شعرت ببداية التعب فنزلت قريباً من المذبح وجلست على مقهى وشربت شايا وجعلني الجو المنعش أركب العجلة حتى وصلت بالقرب من جامع عمرو بن العاص وكان هناك موقف للعربات الكارو والعربجية يجلسون على التلتوار حول رجل يبيع الشاي ويصبه في الأكواب على قفص من الجريد ووابور الجاز حوله صفيحة قديمة مخروقة فقلت لا بدّ أن هؤلاء العربجية داروا ولفوا وهم ينقلون

الأشياء من مكان إلى مكـان ومنهم مَنْ تقدّم بـه العمر ولحق الأمـاكن والطرقات قبل أن تتغير أسماؤ ها فوقفت عندهم وأنا أنظر فجاء أحدهم وقال ما معك فقلت ما معي شيء فهزّ رموشه الكثيفة وفعل حركة باصبعه السبابة وشخر شخرة اهتزّ لها بدال العجلة وأخذتني رجفة فقلت له « يا هذا لماذا؟ » فقال أمك وأم أمك فقلت له إنني سائل عن شيء وأنا عابر من هنا فقال عربجي آخر يلف وسطه بحبل ماذا تريد؟ فكررت له قولي فقال تعال إلى هذا الرجل الذي هناك واترك هذا اللمض فذهبت معه وكان الرجل عجوزا ويجلس فوق حزمة برسيم فقال له هذا يريد معرفة مكان فأقفل العجوز عينا وفتح الأخرى وأخذ ينظر صامتاً وخفت أن يفعل كذلك)ولـكنه لم يفعل وقال اجلسْ فركنتُ العجلة على الحائط وجلست فقال ما عندك فقلت إنني باحث عن رجل اسمه « علي » في مكان اسمه « سبيل الشخص » فهل انت تعرف هذا المكان فقال هذا المكان غريب يا بني ولقد مررت على كل هذه الديار والأمصار فلم اعرف مكانا مثل هذا المكان ولم أسمع به من قبل ولكنه شمرّ عن ساعديه فرأيت أبا زيد الهلالي سلامة منقوشاً على زنده راكباً أسده وممسكاً سيفه وكان العربجية يزعقون بشكل متوحش ويتبادلون السباب بطريقة مقذعة فقال لي هل تعرف هذه الكنيسة وأشار لها بيده اليمنى فقلت له لا أعرفها فقال لي أن أذهب إلى هناك وأسأل عن أبونا مرقص فهو رجل علاّمة في التاريخ ويعرف كل مكان في هذه الناحية فشكرته وابتسمت للعربجي الأول الذي أخذ ينـظر لي بعداء وركبت حتى وصلت إلى باب كنيسة اسمها مار جرجس وسألت الرجل الجالس في المدخل فأشار بأن أتبعه وقال لفتاة لها عينان سوداوان تلتف بشال فلاحي أن تراعي العجلة من أولاد المدارس واجتزنا ساحة بها قصارى ورد وأزهار وآنية قديمة وحجارة وطلع أمامي على سلم عريض له درابزين ثمّ دقّ على باب بالكف النحاسي المدلاة مرتين فما انتظرنا إلاّ قليلاً حتى انفتح الباب وأحدث تزييكا معتقا وبرز منه قس عاري الرأس وفي يده أوراق من مخطوط قديم وأخذ يهزّ رأسه فأشار الحارس إليّ فهزّ هو رأسه وقال تعال فدخلت في حجرة واسعة خفيفة الضوء فيها أرائك مملوكية ومفارش قبطية وكتب بالعربية واللغات القديمة ومائدة نحيلة عليها محبرة

وريشة وصحائف وقطع من الحجارة وجلس هو خلف هذه المائدة وأجلسني على كنبة تحت النافذة المدّورة الوحيدة التي تلقي بحزمة من الأشعة الآتية من مسقط الضوء فيما بين ركنين لنفس المبنى القديم للكنيسة المعلقة على سطح المائدة فبدا وجهه خلف حزمة الضوء كأنه وراء مرآة قديمة ولا بدّ وأنني كنت أيضاً كذلك غير أنه بادرني بالسؤال فقلت له باختصار إنني كذا وكذا وأشرت إلى مظروف الرسالة وقلت وقد يكون من الصعب معرفة الشخص المذكور ولكن إذا عرفت المكان فإنني سأحدد موقفي من الشخص وأريد المكان أولاً وقد بحثت وقتا طويلا ولم أجد وغيره وغيره فأخذ يقرأ العبارة وأنا أتحدث حديثا متقطعا وأنا أحس هذا الجو الغريب الذي وددت لو عشت فيه عمري في حجرة سقفها قبو وشبابيكها منحوتة من الخشب المنقوش وضوؤها معلق على الأركان وقد بدا تمثال المسيح المصلوب على الجدار يبعث في هدوءاً يقشع ضجيج العربات والمركبات وصياح الحناجر وحركات الأيدي والرقاب الكثيرة وعجائز النسوة الغليظة تتحرك في عصبية تراها على الوجوه الملطخة بالمساحيق والأفواه المفتوحة وبها الأسنان البارزة والعيون الواسعة المحاطة بدوائر الكحل وأنا صامت هكذا كما هذا الأب الهادىء الذي رطن باللسان ثم قال إنه قال دائمًا لنفسه إن المعارف بلا بداية ولا نهاية فها هي ذي مسألة جديدة ولا بدّ أن يكون لهذا المكان أصل وفصل في مرحلة من مراحل التاريخ المتعاقبة التي مرّت من هنا ثم إنه بدا واسع العلم بالتواريخ والأزمان وأخذ يقص عليّ حكايات غريبة عجيبة عن شعب عجيب وجمهور كالبحر يهدر في العاصفة ويكون هادئا بعد أن تهدأ ذلك الهدوء الذي يجعل الأغراب يوجهون له الاتهام ثم إنه رحل طويلا وكثيرا في تلك العصور والأزمان لكنه يبدو أنه سيعود ويرحل مرة ثانية إثر الرسالة ثم إنه صمت وقام وأتى بمجلد من مجلدات التاريخ الواسع وفتح صفحة وأخذ يقلب ويهز رأسه وقد وقف خارجاً عن طوره وقال يا بني باللغة الفصحى ثم إنه أطال وهو يكلّم نفسه باللسان قلت له إنني أذهب الآن والوقت ومروره والقلق ركبني فقال إنه سينقل ما هو مكتوب على الظرف والورقة ويحتفظ به ويعود إليه لكنه قال لماذا يا بني قد جئتني الآن وأنا مشغول بالبحث في أصول الحروف وقد توصّلت إلى حلول

لسبعة عشر حرفا أفتريد أن توقفني عن مواصلة بحثي فقلت إنني لا أقصد شيئا من هذا فقال إنه يعرف لكنها الصدف وقد تدخلت بعضها في السابق فأوقفته عن بحثه ولكنه قال لهذا السبب فأنا أؤجل بحثي في أمرك ويمكنك أن تعود إليّ بعد أن أكون قد أنهيت البحث عن أصل الحروف فسألته عن الموعد فضحك ضحكة تحركت لها الجرة القديمة القائمة في الركن على حامل من الحديد الصدىء وقال هذه الأمور لا يمكن تحديد مواعيدها فربما انتهى به العمر وهو لم يبلغ الحرف التالي وأنه بلغ السبعين ولكنه صمت وقال يمكنك أن تعودني متى شئت وتسأل عماً إذا كان هناك خبر عن الأمر وتمشي وأنه ربما وجد وربما لا فهذه أمور تحتاج إلى تقصٍ وتحركت إلى حيث عجلتي واقفة فأخذتها ومشيت بها قليلا وركبتها في الشمس وقلت لأتوجه إلى ذلك الرجل في « الأهرام » وأخذت أبدِّل وأبدِّل حتى وصلت إلى « كوبري فم الخليج » وتخطيته فأصبحت في « الروضة » ثم جئت إلى « كوبري الجيزة » وكان الهواء فوقه رطبا ومنعشا والنيل يتماوج ووصلت إلى شارع « الهرم » وكنت أرى بين اللحظة والأخرى أحد الكباريهات والعمال ينظفونه ويلقون بزجاجات الخمر الفارغة خارجا عن أحشائه وما أن اعتدلت الطريق حتى كانت العربات تنطلق بجنون وكدت أقع تحتها عدة مرات فالتزمت جانب التلتوار وأبطأت من سيري وأنا أحاذر حتى شعرت بالاجهاد فوقفت تحت شجرة وجلست بعض الوقت على حجر وكانت الشمس قد بدأت تسخن فواصلت سيري حتى ظهرت الأهرامات من بعيد وأخذت تكبر وتكبر حتى جئت للمطلع فلم أستطع ركوبه بالعجلة فنزلت وأخذت أسحبها وكان السياح ينزلون من العربات ويقفون ويندهشون وهم يحدِّقون لقمة الأهرامات ويرطنون باللسان والأولاد يجرون حولهم ويقدمون لهم السبح والمراوح الملونة ويطلبون البقشيش وكان بعض السياح يركبون الجمال وبعضهم الخيول وبعضهم الحمير ويأخذون صورا وهم عليها فوقفت أنظر إلى هذا المنظر العجيب بعض الوقت ثم إنني أخرجتُ الخارطة التي رسمها لي الرجل الفنان ومشيت حسب ما فيها من سهام حتى وصلت إلى جنب الهرم الأصغر وهناك وجدت حارسا سألته عن مكان العشة وعن الرجل الذي اسمه « حسن » فقال لي إنها في الشرق قليلا فأخذت أمشي

بالعجلة وهي تقف وتزرجن مني فأحملها وأضعها حتى وصلت إلى مكان بعيد به العشة وأمامها رجل يجلس على حجر مرتدياً لباسا من الكتان كذلك الذي في رسوم الفراعنة يصل إلى ركبتيه ويقرأ في كتاب باللاوندي وأخذ ينظر إليّ بتحدٍ حتى اقتربتُ منه وحييته فهزّ رأسه ولم يقلْ شيئاً فأخذتُ أحاول وأنا أبلع ريقي وهو يحدِّق ويحدِّق وقلت له إنني ما جئت إلاّ لما قال لي ذلك الرجل الذي في « المقطم » فابتسم وقال إنه صديق ولكنه حمار فقلت له يا سيدي هل تسمح لي بالجلوس فقال تفضل فقلت له يا سيدي إن معي رسالة وعنواناً وأنا حائر منذ الأمس وقد تعبت وأنا عازم على ايصالها فهزّ رأسه فقلت يا سيدي إنني بحثت في كل الشوارع وسألت كل مَنْ قدرت على سؤاله فقال أرني الخطاب فأخرجته من حقيبتي وأعطيته له وأنا مؤمل كثيراً فأخذ يقرأ وقد وصل قلبي إلى قدمي وراح يقلِّب فيها طويلا ثمّ رش عليها بعض الرمال ونفضها وقرأها ثانية ثمّ إنه قام ودخل العشة وجاء بنظارة مكبرة وأخذ يتطلّع فيها وهو يوجهها إلى الشمس وأخذ واقفا نحوا من ساعة زمن وهو محدِّق في الورقة ومتطلع فيها وهو يهزّ رأسه وإذا به يتحول ويدخل العشة ويخرج منها حقيبة من الصفيح كتلك التي يستعملها الجنود في الحرب وفتحها وأخرج منها أوراقا وأقلاما كثيرة مكتوبة باللسان وأخذ يحدِّث نفسه حديثاً خارجا وهو يعمل بهمة ثمّ تمطع وقال « آه » ونام على الرمال وأخذ يأتي بحركات غريبة وينظر للسماء ويقول يا نجوم يا نجوم وكانت الشمس ملتهبة والسياح يجرون إلى ظل الأهرامات ويضعون أيديهم على عيونهم ثم إنه مضى وقت طويل وأنا جالس ساكت حتى أنني أحببتُ هذا المنظر وتمنيت لو أظل جالسا هكذا على هذه الصخرة ناظراً للصحراء الممتدة وخيوط الألوان الباهتة وكل شيء ولكنه قام وأخرج غليونه من جيب سترته وأخذ يحاول اشعاله والريح تطفىء العود وهكذا مرات حتى أشعل الغليون وقال هكذا هكذا فقلت له يا سيدي ماذا فقال ماذا فقلت له هل أنتظر فقال على كيفك فقلت هل هناك شيء عنده فقال كل شيء هنا وأشار إلى رأسه فقلت له هل أعود بعد وقت فقال بعد وقت طويل فقلت له إنني ذاهب فأعطاني الخطاب فقلت له ألا يحتاج لكتابة العبارة فقال إنه حفظها فقلت ألا من موعد فقال

ليس الآن فقلت لأمضي الآن ورفعت عجلتي النائمة على الرمال ومشيتُ حتى الهرم الأكبر وأنا متطلع إلى الخواجات وقلت لأجلس وأتفرّج عليهم وما هي إلّا فتاة أجنبية نصف عارية من صدرها ومن تحت حتى رأيت كل شيء مالت إليّ وأخذت تبتسم وتقول شيئا وأنا لا أعرف وإذا هي تأخذ الكاميرا وتلتقط لي صورا وأنا على هذه الحال ثم إنها أمسكتني بيدها الطرية ورائحة العطر تفوح منها تحت الهرم الأكبر فأوقفتني وجعلتني أمسك بعجلتي ونادت على فتاة ثانية وأمسكت بي واحتضنتني فراحت الثانية تلتقط الصور ثمّ إنها وضعت في جيبي شيئاً ولم أشعر إلّا وهي تختفي من أمامي فوضعت يدي في جيبي وأخرجتُ ذلك الشيء فإذا به عقد من الخرز الملون وكنت ظاناً أنه مال أو سجائر ولكن رائحته كانت عطرة فأبقيته بالقرب من أنفي وأنا أتنفس فيه وأشم وتخيلتُ أنني زنجي في نجاد أفريقيا فوضعت يدي على رأسي وأخذت أنط وأحدث صوتا وأقول « هؤ هؤ » وجررت عجلتي ومشيت وأنا أدفع الرمال بقدمي وأحدث غبارا وشغبا حتى وصلت إلى المزلقان فركبت العجلة وتركتها تجري بقوة اندفاعها وأنا عائد هذه العودة التي حطتني على نفس الطريق الذي أتيتُ منه فأوقفتُ العجلة بالكاد قبل أن تصطدم بالأوتوبيس وركنتها على شجرة وخبطت بيدي على يدي وقلت « ياه » وأنا أهزُّ رأسي وأنظر للشمس يا عاشقا تجرفه الريح في طيّاتها وأنا غير يائس أبداً وأمشي على المراحل وأركب في الأزمان والأشياء تدقّ في رأسي وقد ركبني الانشغال وأنا عارف ما وصل إليه الحال حتى وجدت امرأة تقف على الطوار في نحو الأربعين تلبس باروكة حمراء فوق شعرها الأسود الذي خطّه المشيب مرتدية فستانا أحمر لامعا محزقا جداً يرتفع فوق ركبتيها المجعدتين وقد بان أثر الحك باللوفة والحجر وهي لابسة شرابا أسود كالشبكة الواسعة وقد وضعت على وجهها الأحمر وحول عينيها الأخضر والأسود وهي تهز رأسها وما تحت وتزيق وتبتسم ولا تنظر أحداً فقلت لا حول ولا قوة وأخذت أتفكّر في هذه الدنيا وما تفعله بالناس وما كان بي أن أستمر في هذا الطريق الطويل الذي يمتلىء بعناوين الكازينوهات الملونة الرافعة عاليا صور الراقصات العاريات وعلامات الموسيقى المتفجرة فانحرفت إلى طريق جانبي يؤدّي إلى القرى والمزارع وأعجبني منظر

الخضرة الذي ما رأيته من زمن والعصافير تزقزق وتفكرت في أنه ربما يكون لي ولد الآن وما أنا عارف به ولا رأيته وكان الطريق محفوفاً بالأشجار العالية التي تحتك بالهواء فتحدث شخشخة والعصافير تخرج وتدخل في الفروع وما أنا إلاّ برجل عجوز يجلس أمام عشة يشعل نارا ويضع شايا في كوز أسود فألقيت عليه السلام فرد عليّ ودعاني لشرب الشاي فقلت له إني واللّه ما بي حاجة لشرب شيء ولكن بي هماً ثقيلاً وأنا راغب في الجلوس والترويح فقال تعال فجلست جنبه وأنا راكن العجلة على فرع شجرة ضخمة وفروع الدخان النحيلة ترتفع عالياً ما بين يدي الرجل المتأمل وهو ينظر إليّ وإلى عجلتي مرة حتى قال لي هل أنت منهم؟ فقلت له مَنْ هم؟ فقال إن الناحية الآن منكوبة بعصابة تسرق الفتيات من أمام المدارس وتأتي بهنّ إلى القرية التي خلف الترعة وتجلسهن في بيوت بعد أن يفعلوا بهنّ الفاحشة وأن معهم رجل مهم يأتي بعربته الفخمة ويأخذهن إلى الطريق الآخر فلم أعرف ما يقول به ولكنني أحسست يداً ثقيلة تمسكني من كتفي وترفعني وتهزني وما كان بي شيء وما كانت هذه اليد ولكنه شيء توقعته تحت هذه الشجرة وأمام هذه العشة وإذا بها فتاة تطلع من حافة الترعة وهي عارية كما ولدتها أمها فأخذ الرجل يضحك ويقول لها شيئاً بصوت عال ويقول الملعونة فقلت مَنْ هي هذه البنت البضّة ولماذا هي تستحم في الماء وتنشره؟ فقال إنها متلبسة بالمشايخ وعليها جني عظيم لا يقدر عليه أحد وهو يطلب منها اتيان هذه الأفعال وكانت تتزوج فخطفها ليلة دخلتها على عريسها وهي على هذه الحال منذ زمن فقلت يا أخي عندكم من المصائب الشيء الكثير فضحك الرجل وبانت أسنانه السوداء وصبّ لي شايا ثقيلا في كوب صغير وقال هذه الدنيا نفسها مصيبة ولا يعيش الانسي إلاّ ومعه كثير منها ولن تجد مكاناً ليس به وراح يعد الجوزة ويدخن ويعطيني أنفاساً وبينما نحن على هذه الحال إذْ بأصوات كثيرة تأتي من الجسر فيقول لي إنه الولد سلمان ابن جزار البلد يطهرونه فقلت له باللّه عليك هل تدلّني أين أنا؟ فقال لي أنت في هذا العالم وما أنت ببعيد عن شارع الهرم فقدمت له سيجارة من علبتي اللف وأشعلت أنا واحدة لي من النار التي أمامنا وإذا بالزّفة تمشي على الجسر والولد لابس جلبابا أبيض وطاقية وراكب على

حصان عليه سرج ملون وهو يتمخطر ومن حوله رجال وأولاد وبنات من الفلاحين وعربات كارو عليها نسوة يزغردن بالعالي وإذا رجل ضخم يطلق أعيرة نارية في الحقول الهادئة الألوان فتذكرت يوم عرسي وأخذني هذا عماً أنا فيه وهكذا إلى أنْ تنبهت إلى أن الوقت قد مضى وما كان إلاّ أنا واقف ومسلم على الرجل ومعتدل الطريق بعجلتي ومشيتُ على الجسر وتحت الأشجار في الهواء حتى جئت « السيدة زينب »وأنا تعب جداً وجائع فاشتريتُ شقتين من الفول ووقفت على ناصية وأنا آكلهما وشربت كوبا من الخروب الساقع وانبسطت وكان عندي وقت وأنا مصر على أن أمضي فإذا بعربة عليها ميكرفون تزعق والمنادي يبحّ صوته وما أحد سامع عليه ولكنه يقول يا أيها الناس وإذا بزّفة من الأولاد حاملي العصيان تتبع العربة وأنا وراءهم والعربة تدخل في شارع وتخرج إلى آخر والمنادي يقول تعالوا تعالوا والأولاد يقولون « هيه هيه » وإذا هو يقف أمام صيوان به مقاعد كثيرة ورجل يلبس سترة سوداء ويعلّق على صدره شريطاً به كتابة سياسية راح يشير بيده للناس المتجمعين في الصيوان وإذا بهم جلوس والشاي والحلويات على الصواني تلفُّ على الجميع والرجل واقف يخطب وكان مؤتمراً احتشد فيه الخلق والرجل يزعق ويقول أشياء وأشياء وهو مهتم جداً والناس يتلفتون للرجل النوبي حامل الصواني وهو يقول لهم في الغد تذهبون للانتخاب وأنهى كلامه وإذا بالخلق تنصرف ولكن الرجل زعق وقال اسمعوا آيات الّله فإذا شيخ يعتلي المنصة ويقرأ القرآن والناس يقولون الّله الّله حتى ختم ربعين وأنا أودّ أن أشقّ طريقي إلى هذا الرجل المتحدث ولكنه ذاب بين الخلق واختفى كفص الملح في الماء وأنا متضايق أسأل عنه وقال شاب لابس سترة ومعلق شارة أيضاً أنت تأتي في الغد وتجده وتسأله عن حاجتك فقلت طيب ومشيت وإذا بي في « الدرب الأحمر » والشمس تميل إلى الغروب وقلت إن عندي وقتاً فإذا بي أدخل في الحواري. وما هي إلاّ فكرة جاءت على بالي فذهبت إلى « خان الخليلي » وسألت عن رجل اسمه « عثمان » كان لي معه شأن في السابق فإذا بهم يقولون إنه جالس في الدكان الفلاني وما أنا إلاّ به في وجهي فأخذني من يدي وفرح فرحاً شديدا وقال إنه يذهب معي يوم الجمعة القادم ويبحث

معي بطريقة ثانية وقلت إنني ماضٍ في الطريق حتى يوم الجمعة وتركته وإذا بي أطلع إلى مطلع «الدرّاسة» وأرتفع فوق المدينة وأجلس على حجر لأرتاح وأفكر فما وجدت فائدة وقلت أرتاح هذا الليل وأفكر في الصباح ماذا يكون الأمر وما يجب أن أنقطع عن عملي طويلا وكذلك زوجتي وأولادي فيظنوا بي الظنون وأنا أذهب إليهم من عشيتي وأعرف ما إذا كان المولود الجديد ولدا أم بنتا وأتدبر مالاً وأعطيه لأمها وأشتري له لبسا وما تحتاج إليه أمور الرضاعة وإذا بي في دوّامة والليل يسدل أستاره فإذا الوقت وقد مضى فركبت العجلة واعتدلت الطريق النازل إلى البلد وإذا بخلق كثيرين يأتون من كل صوب ويصبون في الميدان ويصرخون ويزمجرون وهم يرفعون أيديهم وما مضت لحظات حتى امتلأ بهم الطريق وما قدرت أن أخترق الزحام وإذا بأصوات العربات تزمجر وإذا أنا لا أعرف ماذا دار وما رأيت إلّا عربة بوليس وهي تصطدم بي وما أنا على هذه الحال وفي غيبوبة تامة حتى رأيتني أصحو على ممرضة وعسكري جالس على مقعد فقلت أين أنا؟ فقالت الممرضة أنت في المستشفى وقد كُسِرت ذراعك ورجلك وما كنت شعرت بهما حتى هذه اللحظة فسألت عن حقيبتي فقالت اسأل العسكري فقال العسكري إنها في القسم فقلت ما الذي دار في هذا العالم وأين رسالتي فقال إن كل شيء سيبين عمّا قريب وإذا بها تقول أنت غبت عن الدنيا يومين كانت فيهما مقلوبة والشوارع تحترق وما هي إلّا ثوان حتى جاء الضابط وقال « ها » هل أفقت من غيبوبتك فقلت إن المقدَّر والمكتوب لا بدّ أن يحدث فقال بطل دروشة وما كان هذا فقال للعسكري هاتِ مقعدا وجلس بجوار سريري وقال اسمعْ فقلت نعم فقال أنا أسألك وأنت تجيب بلا لف ولا دوران فقلت عن أي شيء أجيب وما أنا فعلت شيئا فقال إننا وجدناك تحت العربية وها هي عجلتك وقد انكسرت نصفين فحزنت ورأيتها ممدة على الأرض بجوار السرير وكل عجلة لوحدها وقال الضابط إنه سيأخذها معه ويتحفّظ عليها فقلت وماذا فعلت العجلة فقال أين كنت يوم الجمعة فقلت إنني كنت ذاهباً إلى أهل زوجتي لأرى طفلي فقال وماذا في هذه الرسالة فقلت فيها ما فيها فقال ومَنْ هو « علي »؟ فقلت إنني لا أعرفه وأنا باحث عنه فقال وأين هذا العنوان؟ فقلت إنني

درتُ ولفيتُ وما عرفته فقال سأعرف كل شيء بعد أن تتحرك وجعلني أوقّع على المحضر ومضى وهو يقول للعسكري الذي جاء معه خذْ هذه العجلة وقال للآخر اجلسْ هنا وخرج وتركني مع العسكري فقلت له يا أيها العسكري ماذا جرى؟ فقال لا تسألني عن شيء فقلت له إن عندي طفلاً جديداً وما رأيته فقال اللّه يحفظه فقلت وماذا عن الرسالة وهل ضاعت فقال كل شيء في الحفظ باسمك حتى تقوم فقلت ها هو قد حدث حادث وما كان كل شيء إلاّ هكذا كما كان واعتلاني الألم والهم وركبني الفكر وأنا عارف أنني لا محالة قد دخلت في حكاية.

الثاني

فصل الحجرة

فلما أفقت وبرئت وجدت أمامي الضباط وصف الضباط والعساكر وهم يأخذونني من كتفي في جرٍ ونهرٍ ويقولون « ها » ويغمزون وما قبلوا رجائي بأن أذهب وأسلِّم على الممرضة التي لم تكن خائفة من حالتي وكانت تأتيني بالأشياء بالمجان وحملوني لتوي إلى عربة بوليس وما أنا قادر على المشي بمفردي وقالوا تذهب معنا إلى القسم فقلت وقد عاد إليَّ الهم والكرب والاعياء مالي أنا والقسم وما أكملت كلمتي حتى زعق الضابط وطيطت العربة بالصوت وقالوا اخرسْ فخرستُ ونظرت للعساكر من حولي فإذا بهم مهزوزون وهم يشيرون بالذراع حتى توقفت العربة وبطلت صوتها وزجرجتها الشديدة أمام القسم الأغبر المهدود فأنزلوني ووضعوني على الأرض وكان يوم جمعة ومكبرات الصوت تزعق بالأذان من كل صوب والناس المسجونون في التخشيبة نيام على الأرض يتقلبون ويضجون وهم ملولون وقد اشتد عليهم الحر وجاء عساكر صغار السن قادمين لتوِّهم من الأرياف بعبلهم خلت أنهم سيندفعون في البكاء مرة واحدة وحمل أحدهم حمولتي التي هي العجلة والرسالة والحقيبة وبعض فوارغ لا أعرف من أين أتتني وأسندوها على الحائط بجواري ثم وضعوا يدي في الحديد التليد فقلت: إن الأمر أمر وإذا بعربات أخرى تأتي زاعقة محملة بالمربوطين بالشاش في رؤوسهم وأرجلهم وأماكن أخرى وفيهم رائحة المستشفى فقلت ما

جرى في العالم فقال جاري المربوطة عينه الشمال وأنفه ينزّ دماً وهو يمسحه ولا يكفّ إننا فوج القصر العيني فعرفت أن الأمر لا يخصني وحدي وأنه جلل والناس يتكدّسون ويتكومون ورأيت الأرجل المرفوعة والأيدي الموضوعة والرقاب المصلوبة وكل هذا حتى ازدحمت التخشيبة ولم يعد فيها مكان لقدم وجاء جاويش يزعق ويهرف ويقول يا حرامية من أين نأتيكم بالأكل والشرب فقال شاب مربوط من أذنه لماذا لا تتركوننا نأكل في بيوتنا فأخذ الجاويش ساعتها يزعق ويخرق ويقول بالسب والأديان وكلام الفحش وكان رجل فقد عينه في الهوجة يقول طيب طيب ويتوعّد ولا يخاف والجاويش لا يرد عليه وهو يتطلع إليه بعينه السليمة التي كعين البازي وسبحان مَنْ رفع الهمم ووضع هذا وذاك في الموقف وفعل كل شيء وأتى بي إلى الزنقة حتى شعرت بركبتي وهي تهزني كأنها طالعة من المرجل الذي تحته نار والنَفَس يكبس عليَّ والمكان يمتلىء بالرائحة التي تزكم الأنوف ولم يكن الهم قد فارقني على أهلي وولدي لا بدّ أنهم يسألون عني الآن بالدراجات ولا يعلمون أنني هنا في الحشر ولا بدّ أن زوجتي تجرّ خلفها الأولاد وخالتي وراءهم وتلفّ بهم المقاهي والغرز والحارات وهي تنادي بالصوت حاملة الهدوم على رأسها والأولاد يشدون ذيلها وهي شايلة الرضيع على ذراعها وخالتي تتعكز على عصاها العوجة خلفهم وتقف عند النواصي وتنادي عليهم وتقول لا ترمحوا لا ترمحوا وهم يقولون هيا اركضي وهي تقف وتمسك بأكمام الشبان الذين بقوا في الشوارع وتقول ألَمْ تروه فيقولون عن مَنْ تتحدثين فتقول لا تضحكوا علينا وأنتم تعرفون وتخبون ولا تريدون أن تقولوا وتولول بالصياح وتقول ياه ياه مالنا نحن وهذا ولا كان هو قاصدا شيئاً وماله يطلع ويبحث عن فلان وعلان وأنتم تعرفون الموضوع فيقولون ابعدي عنا فالأيام أيام وما أحد يتكلم مع أحد والعساكر هناك بالدبابات فتقول وأي شيء تعلمتوه في المدارس وما صرف الأهل عليكم وأنتم تربون الشعور وتدهنونها وتفرقونها وتنادي على زوجتي يا فاطمة يا فاطمة انتظري ولا تخبي وتركضي وتمهلي فأنا آتية معك حتى التعب والليل والبحث ولا ينام لي طرف ولا أكلت ولا شربت وهي تقول هيا بنا ضاع النهار والبقية في الطريق وما كان لك أن تأتي معنا والمكان

ليس به أحد ومَنْ يدري ربما عاد ونحن هنا وهو يخرج ويبحث عنا وأنا أذهب فلا أجدهم فأطلع على رجلي وأسأل عن امرأتين واحدة عجوز فوق فمها شارب خفيف أشيب والأخرى صغيرة حاملة الهدوم يجرّ ذيلها بنتاً وولداً والبنت في الرابعة وشعرها خفيف واسمها شربات وولد رفيع أصفر الوجه دائمًا واسمه القاسم في أذنه قرط والبنت في رقبتها رقية وهم لا بدّ ينادون مَنْ رأى منكم رجلاً بعجلة في بدلة ميري صفراء قديمة في رقبته شنطة فيها رسالة والرسالة في مظروف يبحث عن رجل ونحن نبحث عنه وتدخل إلى مقهى مزدحم وفيه راديو تغني منه أم كلثوم بصوت عال وهي تتطلع وتسأل فيقول لها الرجل ابعدي وتقول لها المرأة الواقفة أمام الباب ابعدي ويقول لها العسكري على الناصية يا ولية غوري وهي تقول لقد بعدت وبعدت وأنا ماشية والأولاد معي وأنا أطلع منذ الفجر والضوء وما ذقت طعم الشيء إلّا والعرق في الزمهرير والألم في الكتف والذراعين والأقدام وبكاء هؤلاء وتجلس في ظل البيت حتى تأتي امرأة أخرى لها ما لها في الأمر وتسحبها إلى صحن الدار وتقدم لها الأرغفة والأدام وقلةٌ بها ماء وهي تبكي والمرأة تبكي والأولاد وخالتي تولول والمرأة تقول أين هم الآن وأين ذهبوا ومَنْ يأتي بالخبر عنهم من وراء الجبل أو الوادي أو البحر وتقول بالزجل والمواويل عن الضياع والصحاري والصبّار والبئر والسفينة وتطلق المنادي بالأسماء السبعة التي خرجت وما عادت وهو يركب الحمار ويلفُّ في الشوارع منذ اللحظة والحين ويلقي بالخبر في الحارات والشوارع ويدق بالكف وهنّ يذهبن إلى ضريح الامام الشافعي ويكتبن له الرسائل بالشكوى ويذهبن للسيدة زينب ويقرأن بالصوت يا سيدة الفاتحة ويا سيدة أين هم وماذا نحن وإلى متى وأين الخبر الذي كان طالعاً من أجله وكان ذاهباً للوردية وما رأيته منذ غادر المكان وما أتى منذ الوقت وتدقّ بالكف وتمزق الثوب وتدق بالعصى وتحرر العرائض عند الكاتب والقاضي وتنثر البخور في أركان الغرف وترشّ الملح بالحناء وتعتق الجدي بالنذر وتأتي بالشيخ يخرج المعمول والمدسوس من تحت العتبة أو على جذع النخلة أو على رأس طائر يطير وتسأل الجار العارف وتذهب إلى الورّاقين الجالسين وأنا أتلفت في الشوارع وأركض إلى كل امرأة تجرّ أولادها وتلبس الملاية

اللف وأنظر فتشيح بالوجه وتبصق بالسباب وأنا مالي قصد من معاكسة ولا أقدر ولا أميل حتى يتغير لون الزمن من البياض إلى ضوء المصابيح المعلّقة على السرادقات وتبرق العربات الزاعقة في الطرقات حتى لا يبقى هناك وقت وأرحل في صمت الشوارع في الفجر وأنا لا أسمع سوى ثرثرة العائدين من الجوامع وأجراس الخيل النحاسية التي تجرّ العربات الكارو المحملة بالخضار والمأكول وأتقافز بين الظلال والبرك وأبصرهم واقفين بالخوذات والدروع وأنا أضع يدي على جانبي بعد أن سمعت الصوت والصرخة والعينين وهو يقول ألا تسمع فاسمعْ وأستند على ذراع الأعور وأقف وأتحرك وتحملني العربة المكدَّسة بالأشخاص إلى القلعة في الضوء الكاذب ونصل في الفجر إلى قبو باب القلعة وندخل الساحة ونقف في الطابور حتى أدخل إلى السرداب الرطب وأسير في همهمة القبور وهم يربطون عيني بالفوطة الصفراء التي لها رائحة وأجراس السلسلة في الصمت وتأتي أصابع اليد على رقبتي حتى أفتح عينيّ فأجدني هناك مع البرش على الأرض المرشوشة بالبول والكتابات على الجدران بالأسماء والسباب والآيات والأحاديث والتعاليم والصرخة يا كلاب وأنا أجلس في الصمت ولا أحد هناك حتى الصباح وأتطلّع إلى الكوّة في أعلى الغرفة الضيقة وأنا أشتم الروائح والعسكري يمشي على السقف وينظر من الكوّة بعينه الزائغة والأبواب في العنبر تفتح بالصوت والسلاسل والأقفال والهمهمة وأحدهم يبكي هنا ويقول الفرج يا رب حتى بدأ الضوء يأتي فدخلوا عليّ بشاب في ملابس الحرير مغمّى بالفوطة إياها وألقوا به في منتصف الزنزانة وتركوه واقفاً مفرّج الرجلين وهو رافع يديه وفمه مفتوح ولسانه خارج وعيناه زائغتان وما كنت قادراً أن أقول له بالكلام فأخذ يهمهم ويهمهم ثم سكت ومال ونظر إليّ وما كان قد فعل شيئاً كل ذلك الزمن فقلت ما هكذا تفعل فقال مالي أنا وهذا وأنا كنت نائمًا مع زوجتي وأنا معرِّس من أسبوع واحد وما هو إلاّ وقد مضى وقت حتى فتحوا علينا الباب الحديد وأدخلوا ثالثا كان يبتسم ويزم سرعان ما ألقى التحية والسلام وقال حالكم فقلنا هكذا هكذا وقال إن اسمه حسين فقلت إن اسمي علي ولم يقل الأول شيئاً لأنه ما كدنا نحس بشيء وتلفتنا إلى الباب حتى

طلع صوت وقال أنا فلان الفلاني صباح الفل يا رجـال وسكت لكن سرعان ما طلعت الأصوات بالغناء ولا أحد قال شيئاً في هذا الصباح الـذي كان ضـوؤه يطلع وينتشـر إلاّ والأغنية تجلجـل بالعـالي بـلادي بلادي والصوت يتردد في الزنازين والعنابر وأنا ما كنت حافظاً قبلها لكنها طلعت من حلقي هكذا بالعالي الشديد وكل هذا يهون جنب ما حدث من عسكري جاء وهو ينظر من الكوّة ويغني معنا ويبتسم لنا فأخذتني الجلالة وقلت بالاسم والرسم وكدت أزعق غير أن كسوري كانت لا يزال فيها ألم فخفت أن ينفصل مني عضو وأنا في الحالة والتجربة تمر بي وقلبي يتطمن وما أنا إلاّ وشاعر بالألفة والاندماج والوجد فأملت جذعي وأخذت في الصفاء وما عادت الروائح تضرني ولا الغبار الذي يأتي من الكوّة التي في أعلى الزنزانة وأخذت في النظر إلى خيط من الشمس يتسلل وما أنا إلاّ واجد نفسي في تأمل يتخلل مني النفس وقلت هكذا يكون حال الشاعر إذنْ وهو في الوصل مع الحالة وما كنت مفتكـر قبلها إلاّ وهم يقولون بالباطل عـن مثل هذا الشعور لكنني هأنا أمر به وأراه رؤية العين فأصدق وأقول في نفسي لولا ما في العنق من أولاد وزوجة وخالة عجوز ما برحت هذا المكان وما كنت إلاّ مضيعٌ عمري قبلها وأنا ما كان في حياتي إلاّ خدمة الأسياد في المكاتب ومسح الجوخ وقضاء المشاوير وتذكرت ما كان قد مرّ بي قبلها من أزمنة كنت فيها هكذا أقضي اليوم بطوله في نشّ الذباب في مقهى المنظر الجميل وأنا أبصبص وأبصبص وأتطلع هنا وهنا ولا شيء آخر حتي يأتي الليل فأذهب وأشدّ كتفي امرأتي وأنام وأصحو وهكذا حتى وجدتني حاملا الحقيبة والرسالة وذاهب للبحث حتى حدث الحادث وها أنا هنا في هذه الزنزانة وهم هناك يسألون عني وما وجدت فسحة للتطمين وأنا مالي أحد يعرف بمكاني ويـذهب ليقول لـلأولاد عنه ويـأتيني بالـرضيع لأراه وهو يحرك يديه ويبكي وأنا أهزّه وأحرِّك رقبتي فإذا بي ممدد على جانب البرش والشاب يدخن وحسين يتحدث معه ويقول كل شيء يمر في حياة الانسان وكانت بي رغبة في التبول فقال حسين خبط على الباب حتى يأتي الحارس ويأخذك إلى الدورة لكنني قلت إنني لا أريد أن أتحدث مع هؤلاء الحراس فقام هو وأخذ في التخبيط حتى فتح الحارس الباب وقال تعال

بسرعة وأمسكني من كتفي وكان هناك ضابط يقف في نهاية العنبر ينظر من وراء ثقوب الزنازين ما أنْ رآني حتى أسرع بالاختفاء وأنا داخل الدورة التي كان الخراء مكوّماً على أرضيتها ولها رائحة تصيب القرد بالملال فحاولت أن أطرطر لكنها لم تطلع مني وحاولت كثيراً والماء لا يريد أن يخرج فقلت إنه لا بدّ لكن لا محالة وعندئذ عرفت أنهم بهكذا فعل يعكننون عليك الحالة وأنها مسألة يعنون بها هذا وإلاّ فماذا يخسرون لو أتوا بالمسجونين لتنظيف المكان وأنا طوال عمري تعوّدت أن يكون محل الأدب نظيفا حتى تأتي الطرطره إليَّ وما كنت مهتما في بيتي بملابس أو مطرح نومي إلاّ وكنيفنا نظيف دائمًا وما فيه رائحة لأنه كيف لانسان أن يجلس بالساعة في مكان ضيق وبه مثل هذه الروائح والنجاسات وما أنا مفكر بهـذا حتى زعق الحارس فقلت إنني ما قادر على التبول فقال بالسباب والأيام وأخرجني بزعيقه وما كدت أحطُّ قدمي خارج الدورة حتى تألمت ولكنني كتمتهـا ومضيت أمامه في العنبر حتى الزنزانة وإذا به يسألني عن رقمها فقلت كيف أعرف وما قال لي أحد أي رقم أنا فيه فأخذ يدور بي على الزنازين فقلت له نادي على حسين فأخذ يقول يا حسين يا حسين فقال ثلاثة في نفس واحد نعم نعم فقال أي حسين أنت معه فقلت ما عرفت اسم أبيه بعد فقال أنت تلابط من أجل ضياع الوقت في الشمس وغيرك يريد الدورة فقلت له هات لي المصحف وأنا أحلف ما عرفت فقال تعال هنا وسرعان ما ابتسم ومدّ يده إليَّ بالكبريت فقلت ياه كم فاتت عليَّ هذه وأخرجت العلبة وأعطيته السيجارة الباقية وأخذت في الاعتذار لكنه كان قد أخذها وما يود الالتفات إلى الكلام فإذا بي مأخوذ وأنا في الزنزانة وأضحك وأقول كيف فاتت عليك هذه يا ولد وأنت تلطمت على الرصيف طوال عمرك فقال حسين إنها التجربة وما لك خبرة فقلت وما هي حالك قال أنا يا أخي قضيت من عمري عشرين سنة في الغياهب وما هناك سجن إلاّ وأنا قاضٍ فيه سنوات وما هناك حارس إلاّ ويعرفني ولي معهم لغة تفاهم وهم إذا ما عرفوا منك الأمان خدموك وقضوا حوائجك وما هي إلاّ أيام وسكت ثم قال هل تعرف ماذا جرى وتم في غيابك وأنت في الدورة؟ فقلت لا وأنا ما فعلت شيئاً فقال إن الاتفاق قد تمّ فقلت أي اتفاق؟ فقال إننا

تحدثنا مع بعضنا بلغة الاشارة وأخذنا على عاتقنا ألّا نأكل في هذا المكان شيئاً حتى ينقلونا إلى « ليمان طره » فقلت يا ستار فقال إنه أفضل من هنا فهذا سجن قذر وضباطه يأتون بهم من الحالات فقلت وماذا أنا فاعل إذنْ؟ فقال إنْ أتوك بالطعام فلا تأكل حتى يأخذونا إلى التحقيق وهناك إذا سألك المحقق فقلْ إنك لم تأكل وأنك إنْ مت فهو الذي سيذهب فيها فقلت وما يهمه هو؟ فقال إنـه يهمه وهـذا أمر مجـرب مفعولـه يسري كـالدم في العـروق ويسمع بـه الرائـح والغـادي وسـرعـان مـا يـرتـجّ لــه الايـوان وتهـتز لـه ربــطات العنق والـرؤسـاء كلهم يعـرقـون بسمـاعه لأنـه مات أحـدهم مـرة وهـو مـانـع الأكـل فحكم القـاضي عـلى السجّان بـالمؤبـد ومـا هـو مكمـل جملتـه حتى سمعنـا دقـاً عـلى الحائط فأمسـك حسين بـالقروانـة ووضعها بلصقهـا على الحـائط وأخذ يسمع ويقول أيوه أيوه ٣٠ نعم نعم وصل وحول القروانة إلى الحائط الآخر ولصقها به وأخذ يخبط عليها حتى جاءه الصوت فأخذ يقول له الاضراب ماشي بلغْ الزنزانة الأخرى فقلت يا الّله كيف يتحدثون ويعرفون ولا بدّ أنها كانت تجربة ومَنْ فعلها أول مرة وأخذني الفكر في هذا إلّا أنني وجدت الصمت قد حلّ مرة واحدة بعد الهمس الذي كان يدور وإذا بالضباط يأتون وينادون علينا فإذا بنا عشرة مطلوبين للتحقيق خرجنا من الزنازين ومشينا في طابور يحفُّ بنا الحراس من كل صوب وفي أيديهم البنادق وطلعنا من هذا العنبر درجات ما أنا ذاكر أنني نزلتها من قبل فقلت لا بدّ أننا دخلنا من قبو آخر لكنني رأيت الحجرة التي فيها الضباط وحاجياتنا فإذا بها هي هي والضباط نفس الضباط فطمأنني ذلك حتى وضعوا في أيدينا الحديد وساقونا إلى العربية وكان العساكر يتخفون في الأركان وخلف الأبواب وفوق الأسطح مصوبين بالبنادق إلى الأمام ومرتدين الخوذ وعلى وجوههم تعب شديد وركب بعضهم معنا داخل العربية بلا بنادق وبعضهم خارجها معه رشاشات وإذا بباب العربية ينغلق علينا فلا يبصر أحدنا الآخر والعربية ما فيها مقاعد ولا شيء تمسك به حتى إذا ما اهتزّت وقعنا والحديد في أيدينا وقلت هذه طبعاً ألاعيب فقال الذي في يده الحديد معي وكان هو نفس الشاب الذي معنا في الزنزانة ماذا تقول؟ فقلت هل تعرف الآن اسمي؟

فقال نعم فقلت ما هو اسمك إذنْ؟ فقال محمد فقلت يا محمد كنت أقول إن هناك ألاعيب انتبه إليها فقال ما هي الآلاعيب فقلت كثيرا من هذه الأشياء فضحك وضحكت وقال أحدهم الآن خرجنا إلى الشـوارع وما عليكم إلّا أن ترددوا ورائي وأخذ يزعق بالصـوت ونحن نزعق خلفـه والناس في الشوارع من ورائنا وهكذا حتى بحّت حلوقنا وكنا منفعلين وما كان هذا في بالنا ونزلنا من العربة فإذا بالمخبرين يقفون هناك عند الأبواب متخفين بين الأهالي وقلت ربما كانت فاطمة بينهم وكان الناس يتحدثون مع أولادهم ولكنني لم أر أحداً من أهلي وأخذت أتلفت وأتلفت والحراس يشدونني من كتفي حتى أدخلونا دار التحقيق وهناك كادت تحدث كارثة تودي بحياتي إذْ أن محمد كان قد دخل المصعد وأنا ما زلت في الخارج وفي يدي الحديد المعقود في يده وإذا بالمصعد يتحرك ويرفعني قدر ثلاث بوصات من فوق الأرض وأنا أفلفش وأشّاهد للموت وإذا برجـل غريب يقفـز ويمسك بباب المصعد حتى توقف فدفعني للداخل وإذا بي أتصبب عرقاً وجميع مَنْ حولي يصبصون وما أنا مستطيع الرؤ ية وعلى شفا الغيبوبـة والعسكري يلطم ويقول يا ويلي لو أن ما جرى جرى كنت أنا الآن معكم في السجن وأولادي يتشردون فقلت يا أيها العسكري لا تقلق إن ما جرى قد جرى وهأنذا سليم ومعافى وليس في خدش وما أتممت جملتي حتى توقف المصعد ولكنني خفت النزول منه وإذا بالعسكري يبكي ويقول اخرجْ اعمل معروف ولا تزرجن معنا حتى ينتهي اليوم على خير وساقونا داخل الدار وأجلسونا عـلى الكراسي وإذا بـالمحامـين يهلّون من هنا وهنـاك محملين بالمأكولات والمشروبات والتبغ وخلافه وهم يتحدثون بلغة التطمين ويقولون لا تخافوا فالقضية خاسرة ومن هذا الكلام ورأيت أنها فرصة سانحة لأفكّ حاجتي في هذه الدار فأخذني العسكري إلى الدورة وكانت نظيفة فحمدت الّله وفعلت راحتي بعد الزنقة الشديـدة التي كانت تضغط عـلى نَفَسي وأفكاري فإذا بالدم يتغيرّ في عروقي وتكاد البهجة تعتريني لولا أنني كنت متعباً ومفكرا في الأولاد وما جرى لهم من مأكل ومشرب وأحوال والولد قاسم الذي يخرج لي في المقهى ويقف عند الباب حتى يأتوا به إليّ وهو يقول أمي تريدك وما كنت قادرا على منع نفسي من هذا حتى نادوا عليّ

وأدخلوني على المحقق الذي كان جالساً خلف مكتب عليه أوراق كثيرة وأختام وبجواره كاتب أعدّ الأقلام والقرطاس فألقيتُ السلام دون أن يأتيني رد والرجل كان لابسا النظارات وشعره خفيف وهو لا يحول عينيه عمّا أمامه من الشغل الشاغل وما أنا إلّا هكذا واقف في منتصف الغرفة مسافة زمن فقلت ها هي ألاعيب أيضاً وملت عليه من فوري وقلت إنني هنا فهل هنا تحقيق أم لا فألتفت لي مبتسما وقال طبعا طبعا فجلست من توّي وقلت أنا جاهز فأخذ يهزّ رأسه فقلت هات ما عندك فنظر إليّ محتقراً شخصي وأعطاني على مشمي وأخذ يبهدلني بهدلة شديدة ويروح يسأل ولا يكفّ وما كنت عالما شيئاً مما يسأله ولكنه لم يصدقني الكلام وكان يقول أنتم هكذا كلكم وخلافه وأخذ يهطر وينتر ويزجرني حتى أنه لعن الحياة وما فيها وكل شيء فخلت أنه سيكفُّ ولكنه لم يكف بالساعات والعرق ينزّ مني ومن جبيني ورأيت أنني ذاهب إلى المفتي ليحكم عليّ بالشنق ولكنه ابتسم فجأة فنظرت خلفي وقلت ربما قد دخل مَنْ دخل وها هو يحييه بها ولكنه شتّطر وقال إنه قد توكّد بأنني أعرف وأعرف فقلت يا بيه أنا لا أعرف الشيء هذا وإنني في الحبس بالظلم وأنا ما فعلت إلّا فعلا طيبا وكنت راكبا عجلتي وسائراً في حالي وملكوتي فإذا بعربة البوليس تدهسني وتكسر عظامي مني وها هو السائق طليق الآن وأنا محبوس لأنه كانت هناك هوجة وأنا مالي فأخذ يقول بالتقريع فخلت أنه يتحدث مع واحد آخر ولكن الكاتب كان يكتب والأمر شغال على الآخر وتذكرت أنهم هكذا يفعلون في السيما وأنه لا بدّ يكون متعودا عليها ولم يتركني وهو ينحل شعري حتى غيبنا في وقت الليل وتعب هو جدا وأخذ يبرطم فقلت هذه حالة ولكنه نهرني وقال روح وستأتيني مرة وأخرى ولم يقل لي متى بل تركني هكذا على ناري وأنا ما قادر على أن أقوم من فوق الكرسي وقلت له إن نفسي في سيجارة فلم ينتبه لها وتركني أقوم بصعوبة وهو يطلب العسكري وهو جاء بالحديد وسلسلني وأخذني إلى حيث كان الآخرون يجلسون ويتسلون برواية النكت وقول القفشات اللئيمة وأنا مالي نفس بعد كل هذه السياسة التي قرعني بها والغمّ يكبس عليَّ وما كان أحد من أهلي علم بحالي ولا جاء ولا سأل وأعطاني رجل مهزار سيجارة وولعها لي لأنني كنت

أتطلع إلى علبته وهي في جيبه الفوقاني فأخذت أشد فيها شداً حتى أتيت عليها وكانت نفسي في ثانية ولكنني لم أنظر إلى العلبة حتى سحبونا إلى العربية الكبيرة ولم تكن نفس العربية التي جئنا فيها من السجن ولكنها عربية جديدة وليس لها مقاعد أيضاً وأخذت تهتز بنا وتقلبنا والناس يضحكون فقلت يا ولد اضحكْ وضحكت وراحوا يتكلمون في السياسة فقلت إن حظي جاء مع واحد قراري فأخذوا في سؤالي وهم يولعون لي السجائر فقلت لهم الشيء الكثير ولم يكن بعضه منها لأنني كنت نسيت وأنا ما قادر على العود إلى ما جرى في الغرفة لأنه كان شأناً عظيما ولا أفهم فيه ولكنني غوطت في الكلام والسجائر تأتي كالمطر النازل وأنا أخرّ بالكثير وجاعل من نفسي أبو زيد وهم يقولون أجدت القول يا علي يا بن زهران وأنا متماد على الآخر وما هم بعد وقت إلاّ وراحوا بالهتاف العالي ويخوضون في القول الصعب وما يهمهم شيء ولا أحد فقلت لنفسي يا نفس أنت الآن تطمئني وتقري عيناً لأن معك رجالة وحنيني قد أخذني وعيني تدمع من كلامهم وأنا ذاكر الولد بين هذا والأم وبقية العيال وما نظرت إلاّ والعربية تقف والعساكر ينطون علينا من كل صوب بالخوذات وينهرون بأصوات النمور ويأخذوننا بالزق إلى القلعة وما كان أكل ولا شرب حتى هذه الساعة ولكن لا تشعر بهذا أبداً وأنت في الحالة وأدخلونا إلى العنبر فإذا بنا في الزنزانة نفسها والأبواب تنغلق علينا بصوت الأقفال ورائحة البول وما كان جدٌّ شيء غير ما جاءوا به من قروانات وكان عندنا قروانة واحدة وكذلك برشان آخران كل واحد عليه ما يشك العظم من الوبر الخشن وكل المنغصات غير ما أخذ يطلع بوجود النَفَس من بق وقمل وحشرات لها أشكال ما ممكنك أن تراها ولا في صندوق الدنيا من شدة غرابتها وألوانها وقال صاحبنا حسين إنهم يربونها بالمخصوص في حديقة الحيوان ويأتون بها لتبهرنا وتأخذ من عقلنا فقلت والله ما هي بفاعلة والقمل حيوان والبق حيوان وكلها مخلوقات تسعى على الرزق وأنني للآن ما شعرت بها تقربني وهي معي في سلام فقال صاحبنا محمد إنها تنغرس فيه وفي جلده فقلت بالفصيح إنه هذا من النقص الذي في النفس وأنك لو حولت الحالة ودخلت وما وقفت على الباب وتخطيت العتبة وغوطت ما

مستك بالشر والمرء وحاله وما يشوف فيه وجاءني الكلام فقلته وكانت حكايات عن سيدنا سليمان والهدهد وكل الحيوانات الزاحفة وذات الأربع مما لا أعرف كيف أتاني ولا مَنْ قال لي وما أنا في هذا إلاّ وصاحبنا حسين مهتزا وقائلا أنت هأنت هنا وقد غوطت يا معلم ففرحت بهذا فرحا شديدا جدا وكدت أعيط وما كان إلاّ وقت مضى حتى راحوا يدقون على أبواب الزنازين بالمناكب والقروانات فأخذنا نفسنا ورحنا ندق ونـدق ونحن لا نعرف لم يكون الدق ولا ما جرى حتى تكلم معهم حسين بالقروانة على الحائط وقال إنهم يقولون لا بدّ من « طرة » وما كان إلاّ دق شديد وعياط وما سألوا عنا حتى جاءوا بالأكل فما أكلنا وجاءوا بالشاي وما أخذناه وقلنا لا بدّ من الخروج إلى « طرة » وتطاولنا بالتخبيط والضابط يقول اوجعوا رؤ وسكم فقال له أحدهم بالسب الخارج الكثير وذكر له موضع الأم مما لم يكن يصحُّ قوله في المقام ونحن في هذا العمل الذي تشيب له العرسان فنادوا على الشاب الذي سبّ وأخذوه من خناقه ولم نعرف ما جرى له ولم يعد هذا الشاب وعرفنا أنه كان ملعوبا وأن الولد كان من بصاصيهم علينا وأنه لّما قال هذا كان متفقاً عليه حتى يأخذوه ويقول لهم ما يجري عندنا من كلام ولم أكنْ قد رأيت هذا الولد وكانت نفسي توّاقة لأن أراه وظللت أتوق لذلك فترة وكنت أنتوي فعل شيء في هذا ولكن صاحبنا حسين قال قصصاً في شأن البصاصين وحكى عنهم وقال إنه تربّت عنده حاسّة من عند الّله لمعرفتهم وأنه يشمهم من بعد بعيد وأخذنا في هذا الشأن حتى جاء النوم وكان قد جاءني الذي قال إنهم هناك على الناصية فإذا بي أمشي إلى هناك وبالفعل كانت امرأة على يدها رضيع وهي تسأل وأنا أقترب منها وآخذها بين ذراعي فإذا بخناقة تنعقد لا ترى فيها إلاّ والغبار قد علا وأنت مضروب بالقوارير والدم يسيل من الأنف والرأس وأنا أمشي مرة أخرى في الشارع الضيق القريب من « المغربلين » وأشمّ الرائحة التي من العطارين وإذا بي أجد الولد الذي كان قد أخذني ليدلّني على العنوان وهو يمشي وأنا وراءه حتى طلعنا على السلم الذي كان ينتهي ببرج فيه حمام كثير وعنده بحيرة فيها سمك ملون وأمواج وتمساح جاء لينقضّ علينا فإذا بالولد يخرج نصلا ويغزه في طرف جلبابي الأبيض والتمساح يلتفّ على رقبته ويضرب

بذيله في الماء ثم إن الموجة نفسها جاءت وألقمتني حجرا في أسناني وشعرت بصداع فإذا بأمرأتي تمدّ لي كوب الماء وهي لابسة المنديل بالترتر وفي فمها سن ذهبية وأنا أحطّ الكوب على جانب الكنبة وآخذها بين ذراعي وأميل عليها حتى صرخ الرضيع فإذا بي أتوقف وأميل على جانبي الآخر وأرى أنه كان عليّ أن أمشي مرة أخرى إلى الحارة التي وصفتها لي المرأة التي كانت تبيع المخلل وعندما جلست على الحجر وتلفتُّ إلى الحفرة التي كانت تحتي رأيت فيها وردة سوداء كانت لها رائحة أطيب من الفلّ وأنا أمدُّ يدي إلى مقود الدراجة وأحرِّك البدال وأنحرف إلى الطريق حتى أرى الرجل ذا الجلباب الأخضر والعمامة الخضراء وهو رافع علمه ومنشد التراتيل وكان هناك خيلٌ تهتز ورجال يتكدَّسون على بعضهم وأنا أرفع قدمي بصعوبة على الأحجار حتى أتيت إلى بحر من الرمال وظلال تتجمع فتنتهي إلى ذئب يبتسم ويحدِّق في اتجاهي فأركض حتى أصل شعلة تتدحرج أمسكت بها ورفعتها فإذا بي واجد تلك الشجرة العجوز وعليها طائر صرخ صرختين ففتحت عيني وما كان هناك ضوء ولا صوت وها نحن في الفجر والآذان يأتي بالحشرجة من بعيد لثالث مرة والصاحبان قد استلقيا وأنا تعب وعيناي مفتوحتان حتى رأيت شعاعاً من الضوء آتياً من الكوّة وسمعت خطوات العسكري فوق السقف فقلت ها هو الضوء طالع لثالث مرة في هذا المكان ولا أحد أكل شيئاً وكان صاحبي قد حكى لي عن أنه كيف ظلّ في حبس الأكل ثلاثين يوماً وما كنت مصدقا لحظتها حتى أنني شعرت بالخفة وأنني من الممكن أن أبقى إلى الأربعين ولا أقرب سوى الماء ولكن الحالة تغيرت في غروب الشمس حيث جاءوا وحملونا بالعربيات إلى « ليمان طرة » ورأيت أنهم من كل الأعمار والألوان وكانت تفاصيل وملمات حدثت مما ليس فيه غريب سوى شيء واحد لا بدّ من ذكره وهو أن أحد العساكر كان يسب في « . . . . » كلما انزلقنا على بعضنا من شدة ركض العربية ويأتي بكلام قبيح ما كان في خيالي أن يأتي من أمثاله وخلت أنني سأموت وأنا مندهش من شدة السب وأطال هذا العسكري وأضاف وما كان لي إلّا أن أنظر إلى الحياة وأتطلّع إلى شؤونها وما فيها من حكايات عجيبة لو كتبت بالأبر على مآقي البصر لكانت عبرة لَمنْ اعتبر ثمّ أنهم

أدخلونا إلى مكان له سور عال يحيط به حراس من كل صوب وفيه زنازين متلاصقة لا تكفي الواحدة منها إلّا لشخصين ولكن المخاليق كانوا بلا عدد فتكدّسوا بالسبعات في المكان وكان معنا حظ أننا بقينا نحن الثلاثة مع بعض وجاءونا برابع في وقت العصر وكانت هناك فسحة فيها شجرة وتحتها ظل فأخذت أجلس تحته وأتكلم حتى جاءونا بالأكل في الجرادل ولكنه كان مما لا تأكله البهائم فاقتسمنا بعض اللقمات التي بقيت مع صاحبنا حسين وكان معه جبن وزيتون أيضاً أكلناه وشبعنا ولم يكن فيه شاي بهذا السجن فأخذنا في التدخين من السجائر التي وزعها علينا شيخ يُقال له عم صابر وكانت له مع السجن حكايات وقضى فيه نحوا من عشرين عاما وكان مسجونا أيام كانوا يلبسون الحديد ثلاث سنوات يمشون به وهو يزن عشرة أرطال وفي العام الرابع يفكون منهم ثلاثة أرطال وهكذا كل فترة ولكنهم يخرجون به إلى الجبل ويكسرون الحجارة وما توقفوا عن ذلك حتى ثارت ثورة المساجين يوماً بعد قهر شديد وقامت موقعة في الجبل مات فيها مَنْ مات فما عادوا يخرجون إليه وفي هذا أيضاً حكايات منها أنهم كانوا يسلسلون المساجين ويذهبون بهم إلى الواحات التي فيها من العقارب والثعابين الشيء الكثير وكانوا كلهم في الطابور وقد ركب البعض قطار المساجين وبقي البعض على رصيف المحطة وسلاسلهم مربوطة في سلاسل اخوانهم الذين في القطار وما هي إلّا لحظة حتى مشى هذا القطار والذين على الرصيف ما زالوا عليه والقطار يجرّهم بالسلاسل وماتوا وأُصيبوا بكل البشاعة من قطع للأيدي وتمزيق للرأس مما لا يمكن الوصف به ومن بعدها رفعوا هذه السلاسل وما عادوا يضعونها في أيدي المساجين وأنا ما متخيل الأمر على هذا النحو ولو أنني شاهدته لكنت لا بدّ بكيت وانتحبت وما أنا إلّا مشغول بما جرى لي من حادث المصعد الذي نجّاني منه ذلك الرجل الذي قفز وإلّا كان حدث لي قطع في ذراعي أو تعوير في كتفي أو حتى موت في حالة أن طلع المصعد وما وقفت ولكن الرجل قفز وهأنذا الآن أجلس تحت هذه الشجرة وما في شيء وأدخن وأفكر في عوائد الأيام وما أنا إلّا هكذا حتى جاء صاحبنا محمد الذي كانت أساريره قد انفكّت وما بقي زعلان بل بدا مطمئناً لأنه كان قد قابل عروسه في دار النيابة مصادفة

وتطمن عليها وعلى أبيه المفلوج وأمه التي خفّ بصرها وهو الوحيد المتحمل مسؤولية الوقوف في محل التجارة وقال كيف الأحوال وهأنت تجلس تحت الشجرة في الظل وقد أكلنا وشربنا ودخنا وأين كنا في ذلك السجن اللعين وهناك ليست نأمة تسمع ولا شيء هنا وهذه الشجرة وعليها كروان فقلت إن هذه من عندك فلم أر هذا الكروان فوق الشجرة فقال إنه رآه وأخذ يضحك ثم أننا تحدثنا وقلنا كثيراً حتى نادى حراس الليل وخبطوا أنْ ادخلوا زنازينكم فلم ندخل بسرعة بل عوّقنا وهم يزعقون ونحن نعوق ونذهب للدورة كل واحد مرتين وكانت الأفعال تأتي هكذا معهم وهم يزعقون ويخبطون بالكف ونحن في مماطلة الوقت ولكنهم في الآخر حبسونا وتربسوا علينا الأبواب الحديد التي من ورائها حر جهنم والعرق يلزق بجسم الانسان والمكان مزنوق وما له سوى خرم عال وخرم واط لا يدخل منه الهواء ولا أحد يستطيع الخروج بعدها وإذا أراد أن يفكّ زنقته من بول وخلافه فهو يجلس على الجردل وفي هذا ما فيه من الكلام وأصحابك معك في الضيق وأنت كيف تجلس أمامهم وهل تأتيك هي وهل يكون لك نفس مهما كان ألمك وحاجتك وأنت انسان ورجل وهم رجال أيضاً ولكن الشيء الطيب أننا كنا قد عرفنا حكاوي بعضنا ومجريات الأمور وسياسة كثيرة وتعاهدنا على المساعدة وما كان من صاحبنا حسين إلّا قد وقع نائما وأخذ يشخر فقلنا لا بدّ أنه من أجل التعب ولكنه استمرّ في الشخير وما كان هذا حسناً فأخذنا نقول يا هوه وإذا برابعنا الذي كان اسمه سعد وهو كمساري ويهزر كثيرا هو الآخر يفتح الحنجرة ويتبادل مع صاحبنا حسين «المشخرة» وأنا وصاحبي محمد بين ضحك وبكاء وهكذا حتى غيب الليل وكنا قد أحرقنا كثيراً من لفافات التبغ حتى تعبنا جداً فنمنا ولكن الصباح لم يكن قد طلع وإذا بنا على صوت صراخ فإذا به عراك في العنبر الذي وراء عنبرنا وأصوات الحراس الذين على السقف أخذت في الارتفاع بالتمام وما هي إلّا لحظات حتى انفتح باب عنبرنا ويدخل الضباط والعساكر في كبسة للتفتيش وأخذوا في فتح الزنازين وجاءوا وفتشوا عندنا وما قالوا سلاما وما كان هناك مما يريدون وكادت المعركة تقوم بيننا وبين الضباط ولكنهم في الآخر مضوا إلى حال سبيلهم

وقال صاحبي حسين إن هذه أيضاً ألاعيب فهم قد فتشونا على الباب وما شيء دخل فقلت إنه لا بدّ أن يكون كل فعلهم منها فقال طبعاً ولم يكن الفجر قد طلع بعد ولم ننم بعدها فأخذ يحدثني عن الألاعيب حتى غفوت من تعبي وما أنا إلاّ وبهم يقولون هيا فالصباح جاء فخرجنا من الزنازين ولعبنا شيئاً من الترويض الذي لا بدّ منه ودخلنا الدورة وجلسنا للحديث تحت الشجرة حتى جاء الظهر وغيب النهار فإذا بنا نسمع صراخا آخر فقال صاحبنا حسين إن هذا جهاز تسجيل يضعونه في العنبر الآخر ليعذبونا به وأن هذا أشد وقعاً في النفس عند بعضهم فقلت على مين ولكن البعض منا كان في قلق من هذا ثم أنهم جاءوا وقالوا ادخلوا الزنازين فدخلنا حتى العصر فأخرجونا نصف ساعة قضيناها في المشي من أول العنبر إلى آخره نروح ونجيء وهذا الشيء لا بدّ منه كما علمت وهأنا أفعله بهمة حتى جاءت المغارب فدخلنا وأخذنا في حديث الليل وقلنا لصاحبنا حسين بالصراحة عن شخيره وأنه يجرّ معه صاحبنا سعد في هذا وكاد هذا يجعله يزعل مني ومن محمد لكننا ضحكنا وقال هو أنه لا يشخر إلاّ إذا كان تعبان ولكنه أخذ يشخر وهكذا كان في اليوم التالي من صباحه إلى المساء حتى طلبونا للتحقيق مرة ثانية وسألني نفس الرجل عن كل ما سألني عنه في المرة الأولى من اسم وعنوان وأفعال وخلافه ولكنه كان مبتسما وما على وجهه تكشير فقلت إنه هذا من الشغل وقد ظهر ذلك لمّا قلت له كلاما فيه معنى الغفلة فأخذ يستعيد هيئته الأولى وما هو إلاّ غاضب ومانع الدخان الذي كان كلما مدّ يده ليأخذ منه حتى أعطاني وأخذتُ أنا من جهتي بالابتسام لألينه ولكنه لم ينفع وكانت علبتي قد انتهت وأنا متعود على ذلك كلما مررت بالموقف الذي عليه الحال وفاتت الساعة وإذا بي عائد إلى السجن وكان تفكيري أنه سيكون مكاناً للهروب أو الخروج بأي شكل ولكنني ما وجدت الفرصة ولم يخفف عني إلاّ ما أعطاني الأصحاب من تبغ وما تحدثوا به من الأحاديث حتى كانت أيام وأيام أخذت تنقضي وما كانت هناك بادرة للفرج حتى خرجنا للمحكمة من أجل النظر في حالتنا وقد أحاط بنا العساكر من كل صوب وكانت عربات كثيرة مشحونة بهم وهي تتابع عربتنا وتطلق الصفافير ولكن الأصحاب كانوا يهتفون ويقولون كلاما كثيرا وكان

الأهالي قد ملأوا الميدان الذي أمام دار العدل وهم في تهليل ومناداة على أولادهم ورجالهم وأنا أطلُّ من مكاني المزنوق وما قادر على رؤية أهلي وولدي وأدخلونا بالزق في الطابور وما كان لي أن أراهم وإذا بـالخلق يهجمون على المحكمة ويدخلونها بالقوة فإذا بالضرب والهرج يسود المكان وهم يلقون لنا بلفافات الدخان والمأكولات وخلافه حتى أقيمت الجلسة ودخل القضاة وهم في أرديتهم الفضفاضة فإذا بنا وقوف والناس قد سكتوا وما هناك نأمة صوت في المكان ولا حتى حركة نملة فكانت عندي رهبة شديدة وقلت لاراد اليوم بعد النطق بالحكم وأخذني التعب ولم أكن نمت ليلتها فأخذتني غفوة وكلما فتحت عيني وجدت المحامين يقولون ويزيدون في القول وما هم إلّا قائلون قولا عظيما وفيه زيادة من كل شيء وما أنا في غفلتي حتى ضجّ الناس بالتصفيق والتهليل وإذا بنا في براءة من كل ما قالوه عنا من ظلم وجاءت على لسان القاضي لكن فاتني سماعها والناس يكبّرون ويهللون وكان هياج شديد وفرح وكان هناك عسكري استغفل الضابط وهزّ رمشه بالمبروك فإذا بي سائله أن يـأتيني بالخبـر عن أهلي وولدي ولكنه تلاشى بين الزغاريد حتى أخذونا لنأتي بحاجتنا من السجن وما كـانوا تركوا فرصة إلّا وهم يضعون الحديد في أيدينا مما لم يكن له لزوم وسحبونا من باب يؤدّي إلى دهليز خرجنا منه خلف دار العدل والعربية في انتظارنا وما وضعت قدمي على سلم العربية وتلفتّ فإذا بي أرى امرأتي فقلت « ها » لكن صاحبي المربوط معي ركب وأخذ العسكري يدفعني وأغلق الباب ولا بدّ أنها لم تسمعني وها هي العربية وقد تحركت وما كنت مستطيعا رؤية شيء وكنت أريد أن أقول لكنني لم أقل ثم أنني رحت في الحر والحركة حتى أتوا بنا إلى السجن وأعطونا حاجاتنا ونقلونا إلى دار البوليس وكان الناس هناك مختلفـين جداً ولهم عيـون تأتي بـالشرر وهم يتفرّسون ويزمون وما كان منهم إلّا أن أخذوا فينا تصويرا من الوجه والقفا وكذلك أخذوا بصماتنـا وهددونـا بأن لا نعـود إلى فعلتنا ومـا هم إلّا متهجمون وما تركونا ونحن وقوف إلّا في الليل وهم يمرون علينا وينظرون وقالوا لنا بالشديد أن نذهب فذهبنا والمكان مملوء بمَنْ يبصون هنا وهنا وما أنا إلّا وأجد نفسي في الشارع وفي يدي الحقيبة وبعض الأشياء وما مشيت

إلاّ وصاحبي «حسين» مواعدني باللقاء وإذا بي أحس بالألم في رجلي التي كانت قد انكسرت في البداية وعيناي كانتا تعبتين لكنني مشيت وما كان معي شيء لأشرب أو أركب فأخذت في المشي وما معي العجلة حتى وصلت البيت فإذا بي أسمع الصوت ونساء كثيرات يتكوّمن على فراشي فإذا بامرأتي تنفجر في العياط الشديد.

الثالث

فصل الرؤيا

وكان أن خلا المكان وهدأ الحال فإذا بخالتي زكية جالسة أمامي ومتطلعة دون أن تقول شيئا وكأنها في حال من الوصل وزوجتي فاطمة ترمش بعين بيضاء وتحرك ساقيها المتوفين وقد ارتدت خلخال عرسها الفضيّ وذبحت ديك الفروج الذي كان تحت السرير في قفصه وأعدّت المرق بالحبهان وشوت لحم الديك وغسلت الجرجير الورِوزْ وجاءت بما يثلج القلب من عرقسوس وخلافه والولد قاسم والبنت رقية لا يعرفان بل ينظران وأنا أخذتني رجفة عليهما والرضيع يحرك قدميه في الهدوم المبلولة وما أنا قادر على الكلام بشأنه لأنه ما كان أحد يتكلم وخالتي سحبت فرشها ومضت إلى الفسحة خارج الغرفة وفرشته تحت شباك المدخل وأنا ذهبت إلى الكنيف وجلست في مطرحي أفعل كما الناس براحتي ولا مَنْ ينادي عليّ من سجانة أو زملا وأنا مرتاح جدا لهذا ومتخيل أنني أقدر على الجلوس هكذا قدر ما أريد حتى ولو طلع الفجر عليّ وأنا جالس ومتطلع الحُفَر ونشع الماء في الحيطان وهكذا لفحني هواء بارد بالحرية التي ما يسلبها أحد منك وما أنا هكذا متفكر في هذا حتى سمعت غناء أنثى يغلي بها مرجل الوجد فإذا بي أمنح الفكر وأمدُّ رأسي بجانبها الذي فيه أذني فإذا بي أسمعه يأتي من غرفتنا فأسرعت بغسيل نفسي من ماء الأبريق الصفيح ولملمت سروالي وأسدلت جلبابي ودخلت عليها فإذا بها متهيأة وفي حلة

زرقاء منقوشة بورد أبيض صغير ومنتشر والحلّة عرت ذراعيها الأسمرين الناعمين حتى منتصف الصدر وهي جالسة على حافة الفرش مقرِّبة ما بين فخذيها ومبعدة ما بين رجليها بجلسة عجيبة والماشاءالله قشرة الذهب يشخشخ وكذا المنديل أبو قويه بالترتر الملون وما هللتُ واقتربت حتى ندّت آهة من بحر الشوق وها هي قد أمالت رأسها بشعرها وبللت شفتيها واعترتها دهشة الدفء فأقعيت وأخذتها بذراعي وما كانت ليلة العرس هكذا وأنت تفوز بالليلة التي هيأت لك زوجتك فيها نفسها وتعطّرت وسكنت ورتبت لك فراشا عليه شراشف فيها رائحة البيت الطيب وهي التي تمد اليد وتحرك البدن وتقول بالقوي الذي ما أن كتب على آماق البصر لكان عبرة لَمنْ اعتبر فأنا أعطيت وما كان مني إلاّ لك وأنت قادم من رحلة السجن فتطيب بطيب الخاطر فكان أنني غرست رأسي في صدرها الأسمر المشوب بحمرة عليها انعكس ضوء المصباح الواطيء الذي لم نكن قد أطفأنا لأننا أردنا أن نستمتع بالنظر وهي ما خجلت ولا وجلت بل سهسهت باللسان الحلو وأتت بالحراك وفرشت شعرها والمنديل يشخلل حتى انقلع والقميص انزلق حتى تلملم عن انفراد وما رأيت إلاّ باحة مترامية ودفء وحنان وغوص وفرح ولذة ما ذقت وأنا كنت اليائس من ليلة الحلم وكان روح وغدو كثير والشيء ما رضي ينقطع وأنا راكب الفرس الراضية العاطية وهي تركض وتركض حتى أسمع الصوت في الرأس والأراضي تمتدّ بالزروع ورائحة فل وياسيمن وأزهار مشمش ومنجة وريح خفيف كالحرير الذي أحسست بي داخله وكان وقت حتى طلع الفجر علينا والأصابع متشابكة من القدم والكف وهي تهمس لي أن أتحرك حتى أخرجت برتقالة قشرتها وفصصتها وأخذت تعطيني وأنا آكل نصف الفص وأضع فيما بين لسانها وشفتيها النصف وهكذا حتى جلسنا وأنا أراها وهي تراني وما نزلت لنا عين عن بعض ثم أنها ارتخت فدسست نفسي فيها حتى غلبني النوم وأنا بها بكلي والشمس ألقت علينا الأشعة فاذا بي أنتفض من العادة وخلتني في الزنزانة وكان هذا هو الوقت الذي نجري فيه إلى الدورة ولكنني وجدتني في الحضن الطري والعين المرهوشة السوداء المفتوحة عن آخرها ثم أنها قالت كلاماً عن الصباح الأبيض وهي تبوسني على وجهي وتتنفس

بالقرب من خدي فإذا بي متمدد في كسل حتى طلع النهار وعلا الضجيج بالعربات والعجلات فإذا بها تهزّني لتطعمني وتسقيني والأولاد يضحكون من أجلي وكان أن ذهبت واغتسلت وهي حكّت لي ظهري باللوفة وأمست بي حتى خرجت من الحمام فإذا بسكان الغرف الأخرى يحيطونني ويهنئون في الطرقة ويدخلون غرفتنا بأطباق فيها أطعمة مغطاة بالمناديل المحلاوي وأم سوسو تقول بالصوت الجهوري أتركوه الآن مع أولاده وترمش بالمعنى والفتيات يضحكن وإذا بهاتف يسأل ما هذا الفرح فقلت اغربْ بوجهك وأغلقت بابي خائفاً أن يتغير الحال وحادثت خالتي حتى أصرف الوقت الذي اندس في اللحظة وما كنت عرفت اسم الود لأنه لم تكن فرصة للسؤال بين ما جرى وما هي إلّا ليلة سألت حتى قالت زوجتي فاطمة إنه لم يزل بلا اسم ولا رسم وقالت الخالة كيف نسميه وأنت بعيد عنا فقلت وما استقرّ عليه رأيكما فقالت الخالة « أيوب » وقالت فاطمة « علي » فابتسمت وعرفت أنها قاصدة فقلت في الغد أذهب وأسميه بذلك ولكن الخالة أصابتها جهامة فغيّرت الموضوع وأخذت أحد تهمٌّ بحديث السجن وما جرى فيه والبنت رقية مزمومة الفم ومتجهمة وهي تنظر فحولت الكلام إلى الطرائف والنكت التي كنا ننكت بها على السجّانة وغيرهم حتى تطمنوا أننا لم نكن في الاهانة التي أرادوها لنا أو من هذا ولكن نفسي حدثتني بأن السجن نفسه اهانة وما عجز المرء عن الحركة أو الفعل إلّا منها وكان كلام وأخذ وعطا حتى جاءت العصارى وشربنا الشاي فارتديت حلتي وتهيأت للخروج إلى المقهى حتى ألقى الأصحاب وأعرف الأحوال فما يدور هناك من كلام يعطيك معنى كل ما يجري وما أن وضعت قدمي في الشارع وأنا متطلع لأرى فإذا بهم يقفون في الأركان البعيدة واحد مرتكن إلى حائط وكان أن تداروا جميعاً خلف عوينات غامقة وجرائد رفعوها إلى وجوههم وأخذوا ينظرون من خروم اصطنعوها وكأن الواحد غير متلفت إليك لكنه متلفت ومن هذه الحركات المقرعة فعملت أنا أيضاً أنني لم أرهم ولكن أصابتني حيرة في الاتجاه فما وجدت نفسي إلّا وتحدثني بالذهاب إلى كبيرهم لأمسك بتلابيبه وألّم عليه الناس لأنهم غدوا بعد الهوجة وما فعلوه في الخلق مكروهين ولو أنك تصايحت على أحدهم لأكله الناس وهذا من فعل الباطل

الذي فعلوه بالولايا ولكن الّله حطني في موقف آخر إذْ خرج الجيران والمعارف وأحاطوا بي وهم في عناق وتهليل فقلت يا ولد قفْ طويلا والناس يحيونك حتى يروا ما أصبح عليه شأنك وأنت الآن تغيظهم بهذه الّلمة الشديد من رجال ونسوة وفتيان وحتى حسان غيد كالموز الطري يتحدثن بشأنك وأخذت أطيل الوقوف وأهشّ لهذه وأحادثُ تلك بالكلام الحلو الذي ما فيه عيب بل هو جميل وحسن والناس يوزعون الشربات وأنا أنظر للعيون وأحرِّك البسمة الحلوة حتى جاء عم اسماعيل العجوز وأخذني إلى المقهى حيث وقف الأصحاب جميعا وقالوا يا بطل وأنا بهـا لحال قصدي إلّا والطلبات من شاي وحلباء وقهوة وحاجات ساقعة تنهال على الترابيزة وكذلك البوري والحجر يتغير والكل يدفع ويبقشش بالشلنات وما انفضّ الكلام وقال أكثر من واحد إنه كان يودّ أن يكون في الحشر والولد سيد بطنجهة جاء وهو رابط يـده بشاش معلق في رقبتـه وقميصه المشمشي المزركش مفتوح وصدره بائن وغرزتين عـلى جبينه لم تلتئـما وهو محـزّق البنطلون وممسك بمـطوى قرن الغـزال يفتحها ويقفلهـا في قلب القهوة ويتحدّى ويحدث أصوات المصمصة والعياط ويهزّ الرأس ويحرك الأقدام وهو يقول أين هم أولاد الكلب وغيره من الكلام الفاحش ويخرج من جيبه ربع قرش من الحشيش الهبو ويدسّه في يدي وما أنا عارف ماذا أفعل معه فقمت إليه وأفهمته أن هذا غير صحيح في هذا الوقت وهو فهم ومـا أنا على هذه الحال حتى حكيتُ لهم وأنا متذكر راوي أبو زيد حتى وجدتني في حال من الوصل لم يكن لي بها عهد فأخـذت منهم الأذن وتوسّلت بحاجة أقضيها في الأسواق فإذا بي ماشي حتى أتيت النيل الذي ما أنْ أتيته حتى أخذني الوجد فأفترشت النجيلة وتمددت مرتاحا وكأنني في حلم يأخذني إلى التجربة وأنا طالع بالفرح والتهليل وعيناي تلوّنتا فـأخضرتـا ورأيت الطائر السائر على السياج المعلق بالفرعين يهتزان والآثار التي قطعتها الريح وبالمحسوس أحسست وأخذت في كفي اللبن وما يكف العطاء بآنية من الأبيض المعلق في مؤخرة الركب الماشي عبر الحـدائق والزروع والمـدى المتطاير بالريح الشديد تهز الجلاليب وتدفع المناكب في المساحات المتلاقية في الأركان على الأصوات المتداخلة في الأسواق المكتظة بدقات الأزاميل وهزّات

العربات الكارو المحملة بالنسوة الملفوفات في الملاءات والخرز وأجراس الخيول تطلع من ضجيج المركبات ونداء الصبية يتردد بين المآذن في الغسق البنفسجي المحفوف بالزرقة التي تشقها أسراب الطيور الضعيفة المندسة في أشجار الكازورينا المزهرة بالأحمر الفاقع وقد انبعثت أصوات الكلاب خلف عجلة تتماوج بين الحشود في مدخل الباب الكبير المفتوح على الميدان المكتظ برائحة العطور والتوابل وأصوات الباعة وجرسونات المقاهي المتراصة على الجانبين تتدحرج منها خبطات الزهر وقهقهات الكسالى وأصحاب الراحة في جدل لا ينتهي قبل أن يبدأ صوت المغني الأجش الساقط من الراديو الخشبي بجوار صورة لرجل ذو شارب وجبة وقفطان ينظر هناك ويدخل في ممر الماضي المشع بضوء المشاعل المرفوعة بأيدي رجال الطريقة المهتزون في رقصة الشيخ الأخضر وهم يتمايلون ويطلقون الصرخة خلف هودج السيدة حاملة الأحزان التي اعتلى باسمها راكب الفرس السائرة في المقدمة إلى المقام الصعب المنتهي بالتحليق في فجر اليقظة التي قام الطفل خلالها ولمس بكفه الطرية كفيّ وابتسم للعجوز التي مالت في نهاية الطريق وانتفض بين قدمي العسكري الواقف في الركن وقد أخذتها الانتفاضة قبل الوصل الذي لم تكن قد بلغت وأخذت في بكاء ارتعشت به الشمس وعيني الولد تبرقان بين الجلاليب السود المتداخلة بين الأيدي والوجوه والأقدام المعروقة وهو يتلفت للسقف مستلقياً على الوسادة من خلفه الآيات وحوله النحيب الخافت للصبية الممسكة بالرغيف وأنا أدخل المكان الذي سقطت فيه بعجلتي رافعاً بيدي السعف والورود وتلك الحقيبة حتى شعرت بالألم في ساقي وذراعي وقد حلّ بي العطش عند المنحدر وذغللت عيناي فرأيتُ بقعة الدم وآثار العجلة على الرصيف وصوت الارتطام على الحجر تحت صوت الموتور الذي يزن في رأسي وأنا أتمرجح على الحامل متشممًا رائحة الدواء وغيبوبة بيضاء تنساب في مفاصلي التي اختلطت بصهد الظهيرة وأنا ناظر امرأتي وقد تجعّد منها الوجه والشعر وعرقها يتصبب وهي تعيد إليّ نظراتها وترفع الطرحة وتلّفها حول دائرة السواد المتكثرة على الأبيض ترسل الضوء الذي يزحف إلى الحديقة التي كان الأصحاب هناك ينتظرون تحت شجرتها التي تواعدنا عندها ومعنا الأطفال يوم عطلة النسيم الآتي وقد

حملتنا الأشجار إلى المراكب على سطح النيل المحاط بفساتين الفتيات المشجّرة بالألوان الصارخة نحمل في سلالنا البيض الملون والبصل الأخضر وسمك الفسيخ لنفترش الخضرة ومن حولنا حلقات راقصة تمتلىء بالنهود المهتزة والرجفة التي تسري في جسد العاشقة الشابة المتطوِّحة على دقات الدفوف المدوية وشعرها الفاحم الطويل يلتف وينزل على الوجه المشوب بحمرة يظللها السمار وينتشر عند الخبطة الأخيرة ظل الحديقة التي تفرش العشب في عيد العروس الخشبية التي حملها الرجال العراة على أكفهم يتبعهم المرتِّلون وحاملات الشموع المغروسة في صواني الغناء وناثرات الملح والشعير وصبية السفق الماشين إلى مطلع الماء المرتجف بسمك الفضة الساعي بين شجيرات متمايلة مع النسيم ومتوافقة مع الأشرعة السابحة من حولها صوت البجع يتردد خلال الحقول قبل أن ينهي الصبي خلف البقرة مقطعاً من موال يدور حول ممشى الساقية التي تئز متحدية ضربات مكنة الطحين المتماوجة مع الريح الذي حملني هناك عبر القرى والأزقة المشبعة برائحة روث البهائم حيث التقيت الصاحب الذي حمّلني رسالة عدت بها إلى الربع المكتظ بصوت الآنية وضجيج المكن الذي يقذف الحمم على الوجوه المعروقة الموسخة بالسماج وقد تدلت من أفواهها لفافات التبغ ودفعت بي إلى الركض في الفسحة حيث رأيت واستيقظت وأنا أمد يدي إلى الحقيبة وأحملها وأخرج إلى عجلتي وما أضع قدمي عليها حتى أراهم ورائي وهم يتغيرون ويتبدلون بالقمصان والجلاليب والطواقي والكاسكتات والبذلات الكاملة بالفيونكات والكرافتات والأحزمة والحمالات والبناطيل المبهدلة والعفاريت بالزيت والشحم والنظارات الداكنة الزجاج والبيضاء التي بعضها للشمس وبعضها للقراءة وبعضها للمشي ويرتدون الشوارب واللحى ويخلعونها ويجعدون الوجه وينتسفون الرمس ويبسمون حتى تتغير الملامح وأنا لم أره كيف خرج من القميص التفتى وارتدى الأزرق ولفّ رجله بالشاش وتعكّز على العكاز ومشى بالأضلع وكيف كان معهم ثم افترق وهم يجلسون ويشربون الشاي والحاجة الساقعة وهم ينظرون في البعيد وهناك ويعتلون البسكلتات والموتوسيكلات ويجرون ثمّ يمشون ويمسكون بالعصي العوجة والمناديل الورق والمراوح وأيدي الأطفال

وقراطيس الفاكهة وأيدي الحريم وأكياس الملابس عليها علامات الشركات والشنط السامسونايت وشنط الخضار وفي أيديهم لفافات اللحم ولفافات الدجاج وعليهم التعب ويقرأون الجورنال والمجلة ويتأبطونها ويمشون ورائي وأنا ألفّ من الحارة وأدخل الزقاق وأندس في الزحمة حتى أجيء إلى المقهى وأجلس بجوار الرجل وأقول كيف الأحوال فيقول كيف الأحوال وأكلمه ويكلمني ونلعب الطاولة ونشرب الشاي ثمّ نمشي في الأسواق ونرى الحادث ونذهب إلى الحديقة لنلقى الأصحاب ونتسامر تحت الأشجار وأصوات الفتيات تحفنا حتى نعود ونتحدث عمّا جرى هناك في العنابر ونسترجع الصدى والوحشة حتى نرى الألم يأخذ بنا ويطلع إلى التحليق حيث المقام الذاهب إلى شبق الرؤيا المكتظة بالتواريخ المتوالية عبر أزمنة الخوف والشدة وهي تنحني في انفراجة تلوح وتتباعد حتى تندس خلف الظلال المتماوجة بضجيج الصخب وزحمة الغشاوة المتراكمة في الساحة التي مزقتها أقدام الخيول وعجلات المركبات ودوي المدافع حيث تساقطت الأيدي والرقاب واختلط الحديد واللحم والدم وريش الديكة والبط واختلط الأمر ومرّت أعوام انسدّت فيها الطاقة وخرج الناس مهرولين يرمقون الأكف حيث تتزاحم وجوههم بين أقدامهم وهم يركضون ويركضون حيث تتعرّى الأنياب وينزف الصبي تحت أنقاض البيت وتتداعى النوافذ وتتطاير الشرفات ويفيض السيل راجفا من وراء الجبال يدفع قطيع الفئران والذئاب وينتشر رعد الأبقار المذعورة مع صهيل ونهيق ونباح يندفع في زلزال كامل يشق النهر وتشتعل بشرره الأشجار ويرتفع الدخان من الحقول وتتعفن الجثث في أسواق الموت وعلى أرصفة المقاهي تتمدد الأجساد المطروحة المتمايلة من الكراسي وتتوقف الساعات ويكفّ صوت المغني وتهبّ الريح بالأخشاب والأوراق والصفائح وتتطاير السراويل تجرجر حبال الغسيل وتندس الوجوه في الجدران وتعض الأسنان مقابض الجمر حتى تستيقظ الأميرة النائمة في الحديقة وتفتح عينيها السوداوين فيميل العاشق بالمعشوق ويدس أصابعه الحرى في حرير خصلها ويشتم رائحتها المختلطة باللبان وماء يفوح برائحة خصب ينضح من لآلىء تشع بانعكاسات تتبادل الخصب مع ملمس الضوء الساقط على الجانب العاري

من صوت شذى الغوص في بحيرة تهتز خفيفا مع أنفاس المغنية التي تبوح بالسر في هدوء للواقف على الشاطىء مادّاً يده بالمنديل والازار متطلعاً من حيث يأتي الصدى يتمايل مع الموجة الضاحكة القادمة من نبع حديقة الأصوات المجاورة للنهر الآتي من منابع الرؤ يا المحمَّلة بالنداء الذي يتردد عبر الوادي في مطلع الشمس قبل أن تقطر عيناي بالدمعتين بعد الرجوع المثقل برجفة البرد الذي أشعرني وأنا أمد يدي على النجيل فإذا بي أرى أضواء الكباري والكازينوهات وهي منعكسة على صفحة الماء وإذا الوقت متأخر وأنا مجاور الشجرة فما كان مني إلاّ أن مددت يدي إلى جيبي لأجد حافظتي وبها بطاقتي فقلت لا بدّ أن زوجتي منشغلة البال وخالتي تقول بالأمثال وهي الآن ذاهبة للبحث عني من جديد وما أنا هكذا متفكر حتى رأيتهم هناك خلف الأشجار يرقبونني فقلت من أين أمشي الآن وخلت أن بأيديهم هراوات فأخذت أزحف على النجيل حتى غيبتهم وانسللت من بين الزروع إلى أن جئت السور العالي الممتد فمشيت في ظله مهرولاً وأنا أرى الأشخاص يمرون أمام عيني فإذا بالرجل العجوز يركض بجواري وهو ممسك طرف جلبابه ويقول لماذا تركض فأخذت أقول له كلاما وأنا ما قادر على التنفس والحر قد اشتدّ بي وأنا متصبب عرقاً حتى انحرفت مع السور فإذا بي بين حجارة ورمل وزلط وكلب يركض خلفي حتى أوشك أن يلتهم أقدامي ولكن القوة أتتني حتى انفلتُّ منه وما أنا بجوار الكوبري حتى سمعت دوي طلقة يصفر بجوار أذني وقلتُ يا ولد افلت بجلدك واندسّ في الزحام فإذا بي في أحد الأسواق والناس يهرولون وكأنهم ليلة العيد فإذا بي أتنفس وأهدأ ولكن مفاصلي كانت زلقة وأنا أودّ لو وجدت أحد الصحاب لأحدثه بالأمر ولكنني وجدت بائع عرقسوس أشبه بذلك الذي كنت أراه مراراً فشربتُ منه وبللت ريقي ولم يكن الطريق طويلا إلاّ أنني خلته لا ينتهي وقلت إنني ما كان يجب أن أركض كل هذا الركض وما كان قد حدث شيء ولو أنهم كانوا قد فعلوا بي شيئاً لكنت قد ضربت أحدهم ولكنني تلخبطت وما كنت عارفاً ما إذا كانوا قد جاءوا لأذيتي أم لا ولكنني قلت أنت الآن أفضل على أي حال وماذا يضمن لك أنهم لو أمسكوا بك ما فعلوا بك شيئاً أم أنهم كانوا فقط في مراقبة أمرك ومَنْ ترى ومَنْ لا ترى

ومن هذا الشغل الذي لا يفعلون به سوى مضايقة البشر وإذا بوجه أشبه بوجوههم يمر أمامي من وسط الزحام ولكنني لم ألتفت إلاّ وأنا داخل في ضلفة محل زجاجية حتى خرج إليّ صاحب المحل وزعق في وجهي وقال يا سكران فقلت ما أنا بسكران ولكني تعب فقال لي كلاما فاحشاً حتى هراني بالنكت والتقفيش الذي ما كنت قادراً على الردّ عليه وقلت باستياء لقد خرجت من حال الوصل إلى هذه التي أنا فيها وما كان يجب أن أترك لنفسي العنان هكذا ثمّ أنني وصلت بيتي ودخلت على أولادي فإذا بهم في غم وزوجتي عيطت من هذا الغياب الذي لم أخبرهم به من قبل وقالت خالتي إن روحها طلعت وهي جالسة تنتظر ولكن الأولاد كانوا فرحين بلقائي فإذا بالتعب يخفّ ولكنني كنت مغبرا والتراب في حلقي فهيأت لي فاطمة الماء الساخن وجلبابي النظيف ودخلت معي الحمام وسألتني وأنا أخلع ملابسي عمّا جرى فقلت لها ما جرى شيء ولكنني ذهبت لزيارة الذين لا بدّ من زيارتهم فقالت ولماذا أراك مهموماً فقلت لأنني وجدت الذين زرتهم مهمومين فقالت مَنْ هم فقلت إنني ذهبت إلى ذلك الرجل العطار الذي كان قد أعطاني دواء شافيا فإذا به هو نفسه مريض وما نفع فيه شيء وقد جرّب كل أنواع العطارة التي لديه وأخذت أزيد وأعيد في حكاية العطار ثمّ أنني حكيتُ لها حكاية أخرى عن سائق العجلة الذي كان قد أخذني إلى ذلك الرجل الأثري وقلت لها إنني التقيته في المقهى الذي تعوّد أن يجلس فيها وحدثته عن الأمر وبدا أنها صدقت كلامي ولكنني كدت أحكي لها عنهم وكيف كانوا يتبعونني حتى في خلوتي مع نفسي ولكنني لم أفعل لأنني وجدتها قلقة وقلت لها كلمتين حلوتين لأن النساء هكذا يأتين بهذا الكلام المعسول حتى أنها ضحكت وباستني ودعكت جسمي التعبان بالماء الدافىء حتى استرحتُ وخرجتُ وتمددت على الفراش حتى أحضرت الطعام وقلت يا ولد أنت في الغد تذهب إلى السوق وتجد لنفسك عملا وتتحمل أمور نفسك وعيالك وخالتي قالت أن أذهب في الصباح إلى المعلم سلطان وآتيها بالمبلغ المركون عنده من زمن لندهن المكان بالجير وننجِّد المراتب فقلت لها إن هذا المبلغ لكِ وأنا ذاهب في الغد إلى العمل وأنا صاحب سبع صنايع ولن يعجزني شيء عن العمل في النجارة

أو الحدادة أو الدهان أو حتى حمل الأشياء أو بيع السبح والّله يرزق عباده وهكذا تكلمنا بكلام الحياة حتى شربنا الشاي وآوينا إلى النوم فإذا بامرأتي في حال من الدفء وهي تضمني حتى رأيتني أسبح في ضوء خفيف غشيني حتى استيقظت وأنا أشمّ رائحتها وخالتي كانت تصلي الصبح في الفسحة وخلت أنني أنعم بالراحة ولكنني نظرت إلى وجه فاطمة وهي نائمة فقلت يا ولد إن امرأتك تعبت معك وهي صابرة وراضية فأنت الآن عرفت وتفتحت عيناك فلا تترك الفرح وفي الغد تلقى الأصحاب وتحادثهم في الوعد الذي وعدتهم فإذا بي أغفو مرة ثانية وما أنا إلاّ بصوت وابور الجاز ورائحة الشاي كما كان الحال في الماضي الذي خلتُ وأنا هناك في الحشر أنني لن أراه فاستيقظت وأفطرت ورأيت في وجوه الأولاد أشياء وأشياء ما كنت رأيتها قبلاً فأخذتني الهمّة وذهبتُ إلى السوق وبحثت عن معارفي حتى دلّوني على عمل في محل نجار وأنا كنت خبرت هذه الصنعة وبدأنا في عمل جهاز لعروس وهكذا ثم أن الأيام مرّت وجاء الوقت الذي رأيت فيه كل الذي حدث وكأنه لم يحدث ولكنني لم أنسَ الوجوه ولا الشيء الذي جعلني أرى الأمر كما أراه الآن واضحاً جدا وعاودتني آلام الحياة إذْ أن الرجل صاحب الورشة بدأ في اللؤم وأنا صابر على لقمة العيش ولم تفارقني الأحلام التي كنت أرى فيها الحديقة التي مشيتُ بها مع الأولاد ونحن نتملّ ونسمع حتى نعود في نهاية النهار ولكن الحياة لم تدم هكذا إذْ أنني كنت عائداً إلى بيتي فإذا بي أسمع صراخا صادرا من غرفتي فعرفت أن خالتي ماتت فاعترتني القشعريرة وتوقفتُ في الخارج حتى تجمّع الناس من حولي ولكنني قلتُ يا ولد تقدّم وواجه الأحزان بشجاعة فأنت اليوم تحملها إلى قبرها وتضع عليه السعف الأخضر وتوزع الصدقة والعطايا فهكذا هي الدنيا.

ثلاثية
سبيل الشخص

تذكرت « الغوري » وغيره من السلاطين وحريمهم وما كانوا يفعلون مع حريمهم الكثيرات جداً وقلت: يا لها من حياة حقيقية فقد كنت طوال عمري أودّ أن أفعل مثل هؤلاء السلاطين ولا أخرج من الحرملك أبداً بل أنام هناك طوال الوقت وأشرب الشيشة والمنزول وأفعل كثيراً وأسمع حكايات « ألف ليلة وليلة » وخصوصاً حكاية الجنية والملكين شهريار وشاه زاد وما فعلاه معها تحت الشجرة وأسرح في بلاد خلق اللّه عندما أحب وأينما أكون وآخذ معي أجملهن وأذهب لأصطاد الغزلان في الغابات وأشويها وآكلها في الهواء الطلق وأنام معهن أيضاً في الهواء الطلق والبازي يحوم من حولي واقتربت القلعة مني الآن وأصبحت أنا قريباً منها وكانت « العجلة » تجري جدا وأنا لا أحرك « البدال » ولكنني أمسكت بها جيداً حتى لا أقع لأن الأرض كانت مزلقانا وبعد أن انتهى هذا المزلقان وأنا لا أفكر بل تركت نفسي مع الهواء لم أقدر على أن أطلع المطلع الثاني فتعبت ونزلت وأخذت أجرّها وكانت سترتي قد تبللت مرة أخرى وخفت من البرد

الثمن ٧ ليرات لبنانية او ما يعادلها.

دار التنوير للطباعة والنشر ص. ب. ٦٤٩٩ ـ ١١٣